مكتبة ديوان العرب تقدم لكم

دليل التائه

الخروج من بغداد

الكاتب المصري: محمد غزلان

إهداء

إلى الذين علموني..

وإلى الذين تعلمت منهم..

شكر وعرفان

كل الشكر والعرفان للذين رحبوا بهذا العمل واحتفوا به، الشكر والعرفان لكل من وضع نقطة في المخطوط الأصلي أو أضاف فكرة أو حذف كلمة.. الشكر للأصدقاء: فتحي فرغلي وعياد بركات والصديق الصحفي العراقي عبد الكريم العلوجي وعزت كساب وعبد السيد وليم ويسري حسان الذي راجع معي أول تقاريري الصحفية الواردة من بغداد عام 1990.

والشكر والعرفان للدكتور عزازي على عزازي الذي دفعني وحثني لكتابة هذه الرواية، وخالص الامتنان للأستاذ/ يوسف الشاروني.

(1)

هبطت الطائرة بسلام ولم يحدث خلال الرحلة ما يعكر صفوها.. أو ما يتطلب إعادة النظر في الخطة والهدف الذي جاء من أجله. كل شيء وصف له بالكمال والتمام قبل الشروع في الرحلة.. حتى ملابس المضيفات وطريقة دلالهن.. كان الوصف من الدقة كأنه ركب الطائرة ألف مرة.. وابتسم سعيدا بنجاحه. لقد هبطت الطائرة التي تحمل على الزاوي بسلام في مطار صدام ولم يكن النجاح الذي أحرزه حتى الآن وليد الصدفة، فقد كرس الجزء الأعظم من الشهور الأخيرة في جمع المعلومات والتفاصيل واستمتع بسماع كل الروايات والحواديت.. الجاد منها والهزلي ولم يعط أذنيه للتحذيرات التي أطلقها بعض الجيران ونصائحهم بألا يصدق كل ما يسمعه.. لم يهتم ولم يكترث بمثل هذه الأقاويل، فهو يرى أن البحث عن النصيحة عمل مطلوب وإن الاستماع إلى أهل الخبرة ضرورة " فما خاب من استشار " وقد عمل طوال حياته بهذه النصيحة الغالية.. استشار الكل قبل سفره.. واستمع بعينيه وأذنيه لكل من ذهب إلى العراق وعاد منها.. استمع لشباب عائدين لتوهم من هناك.

بعضهم أمضى سنوات والبعض الآخر عاد بعد شهور.. بعضهم عاد سالما غانما يتحدث بشوق وحب عن العراق ومغامراتهم فيه وكيفية تعاملهم مع العراقيين.. بعضهم مشى في العراق من أدناه إلى أقصاه.. يحكي عن شوارعها.. أزقتها.. حواريها.. مقاهيها.. يحكي عن رجالها ونسائها.. البعض قال إن العراق دولة ترحب بكل العرب وتسعهم كلهم ولديها من الطعام والخيرات والبترول ما يكفيهم جميعا.. قالوا أنها تستقبل الخليجي والسوداني والمصري بلا تأشيرة دخول، ففي المطار يختم المسئول جواز السفر بعد عدة أسئلة بسيطة دون انتظاره لسماع الرد.. ونادرا ما يدقق في القادم خاصة إذا كان مصريا.. ثم يدق الختم على الجواز ويرحب بالضيف.. قالوا له إن آخر جملة يسمعها في مطار بغداد هي أهلين أو سهلين أو هلا.. وفي أمان الله والجملة الأخيرة هي كلمة السر لدخول بغداد.

آخرون قالوا له عكس هذه الروايات، فالمرور من مطار بغداد أصعب من المشي على الصراط المستقيم يوم الحساب، فلا يأمن احد إذا كانت نهايته في الجنة أو النار.. قالوا له إن مسئولي الجوازات هناك طوال عراض لديهم شوارب كثة وعيونهم تطلق شرارا وإذا ساورهم شك في قادم لن يخرج من المطار وقد لا يعود إلى بلده أبدا.

كانت الأفواج تهل إلى بيت على الزاوي قبل سفره بشهور، لا يأتيه زائر إلا وقد سحب معه شخصا قادما من العراق ليحكي للزاوي تجربته هناك وكانت القصص كثيرة ومتضاربه.. من حققوا نجاحات هناك ظهرت النعمة عليهم وعلى ذويهم.. طابق أو أكثر ارتفع فوق المنزل القديم.. أجهز كهربائية وملابس مستوردة.. منهم من تخلي عن تدخين " المعسل " أو السجائر المصرية.. وحمل علبة أو أكثر من المالبورو الأحمر.. علامة النعمة والثراء الواسع في الحواري الضيقة.

هؤلاء أسهبوا في الحديث عن دفء العراق ودماثة أخلاق أهه وترحيبهم بالمصري وحبهم له خاصة إن كان من أبناء الصعيد.. قالوا أن الصعيدي له منزلة عالية في القلوب ويستقبله رجال العراق ونساؤه ببشاشة في بلد يعز فيه الابتسام ويسوده التجهم. أما الذين فشلوا هناك، فكان حديثهم مغايرا.. دار كلامهم عن فظاظة أهل العراق وإدمانهم الخمر مثل شرب الشاي وحكوا قصصا عن السكارى في الشوارع والطرقات والقتل وإطلاق النار لأهون الأسباب.. وتحدثوا عن جرائم السكارى، ونصحوه بتجنبهم، فهناك عرف يقول إن " السكران في ذمة الصاحي " وعلى الصاحي أن يتحمل تبعات التعامل مع السكارى. وتحدث الفاشلون أيضا عن نساء العراق بما لا يليق وقالوا إن بين " الخمارة " والخمارة.. خمارة.. وتحدثوا عن غزواتهم وغرامياتهم.

وصل الزاوي لمطار بغداد.. سأله ضابط الجوازات إذا كان قد جاء من قبل إلى العراق أو لا.. نفى بحزم واقتضاب.. فقد أخبره من أخذ منهم الرأي والمشورة قبل سفره أن يقتصر في الكلام قدر المستطاع.. ولا يجيب إلا بقدر السؤال ولا يتطوع بالحديث في أشياء لا تطلب منه، فقد يجر عليه حسن نيته الكثير من البلاء. عاد ضابط الجوازات يسأله وهو يمسك الختم بيد وأصابع اليد الأخرى تقلب في جواز السفر.. عاد ليسأله بطريقة أكثر خبثا " يبدو انك غادرات العراق لتجديد جواز السفر؟! أجابه الزاوي بأن هذا أول جواز يستخرجه في حياته وأول مرة تطأ قدمه أرض العراق.. ختم له المسئول الجواز ورحب به في أرض الرافدين متمنيا له إقامة طيبة ورزقا أوسع.

لم يسأله ضابط الجوازات عن سبب زيارته للعراق وهو السؤال الذي كان يقلقه ويتوقعه ويخشى الإجابة عليه. ودفعه القلق إلى سؤال العديد من المعارف والجيران والمستشارين الذين ذهبوا من قبل إلى العراق عن كيفية الإجابة عن مثل هذا السؤال.. حذره الكل وأخبره جميعهم بألا يفصح عن السبب الحقيقي لقدومه إلى العراق.. وأوضحوا له أن كشفه لمثل هذا السر قد يؤدي إلى حجزه في المطار وقد يعيدونه على أول طائرة إلى القاهرة أو يحجزونه إلى الأبد في العراق.

قال له المعارف والجيران وأهل الخبرة بشئون العراق انه في حالة كشفه لسبب الزيارة سيثير هواجس رجل الجوازات.. وإذا ثارت هواجسه فعلى الدنيا السلام.. سيحيله إلى مسئول اكبر وهو في الحقيقة من ضباط المخابرات المعروفين بالغلظة والتشكك.. وحكوا له بعض القصص والروايات وما رأوه من طوابير المصريين أمام مكتب الاستخبارات.. يحجزون جوازات سفرهم وحقائبهم وأمتعتهم.. وينادون على فرد.. فرد، وفي داخل المكتب تحاصره كل أنواع الأسئلة بعد أن يجلسوه أمام ضابط كبير بملابس مدنية بصحبته ضابط آخر ربما يكون اقل رتبة.. ويتحدث الاثنان باللهجة المصرية مثل أهل مصر ويستعرضان أمام المشكوك في أمره معلوماتهم عن كل كبيرة وصغيرة في مصر وبعد الأخذ والرد وتكرار السؤال بأكثر من صيغة وأكثر من أسلوب، يأمران القادم بالانتظار لساعات أخرى خارج المكتب قبل اتخاذ القرار.. أما بالسماح له بدخول العراق أو بالاحتجاز إلى أن يصدر قرار الترحيل.

في حالة احتجاز القادم يتم تفتيشه في حجرة مجاورة.. هكذا قالوا له.. يبدأ التفتيش بالحقيبة وأغلب المصريين يأتون إلى العراق بحقيبة واحدة.. ويخرجون كل المحتويات ويسألون القادم عن مكان شراء كل قطعة.. ثم يأتي الدور على ما يسمى بالتفتيش الذاتي، حيث يؤمر القادم بإفراغ كل ما في جيوبه ويضعونها على طاولة وقبل التفتيش في الأوراق التي يحملها والعناوين التي معه وأسماء أصحابها وأرقام تليفوناتهم، تعبث أصابع مسئول آخر في جميع جيوب القادم تحسبا لإخفائه أية أوراق.. ثم يسألونه عن علاقاته بالأسماء التي معه وإذا كان دفع لأحدهم مبلغا من المال نظير استقدامه للعمل بالعراق وتوفير السكن والعمل وغير ذلك من الأسئلة التي تجفف الدم في الشرايين.

لم يسأل ضابط الجوازات على الزاوي هذا السؤال الروتيني عن سبب مجيئه إلى العراق وضرب الختم في قلب جواز السفر وأعطاه له.. سلمه له باليد ولم يقذفه في وجهه. كان الزاوي آخر من وقف في الصف بناء على النصيحة التي حلمها من القاهرة قبل سفره مباشرة وهي نفس النصيحة التي حملها بين ضلوعه منذ ثلاثة عقود عاشها بالقاهرة " تأخر.. لا تتقدم الصفوف ".. التأخر يتيح مجالا اكبر للرؤية وفسحة من الوقت لاستشعار الخطر قبل حدوثه والتأخر يساعد في التراجع والهرب في الوقت المناسب قبل أن يشعر بك احد وقبل وقوع الواقعة.

أمسك على الزاوي بجواز سفره وكاد يضع ذيله في أسنانه ويقفز فوق الحواجز إلا انه تذكر انه خلع الجلباب لأول مرة في حياته وارتدى ملابس أفرنجية كان ابنه الأصغر " فرج " قد تركها له.. بنطلون وقميص وبلوفر.. هذه الرحلة جعلته يفعل العديد من الأشياء لأول مرة في حياته.. عبر الحاجز بسرعة البرق وانتظر حقيبته القادمة على السير المتحرك.. تظهر الحقيبة ثم تأخذ دورتها لتختفي مرة أخرى.. ثم تعاود الظهور أفهمه عامل النظافة ضرورة أن يمد يده ليأخذها.. فهي تقريبا آخر حقيبة ويبدو أن صالة الوصول تكاد تكون خالية، فهو موعد تغيير الوردية.. لا يهم.. بمجرد ظهور مسئول الجمرك سيحمل الحقيبة إليه.. اخذ يقلب الزاوي في جواز سفره يتفحص صورته.. ويقرأ اسمه وبعض الأرقام المدونة وهو أقصى ما يعرفه في عالم الكتابة والقراءة.. الاسم على محمد يوسف الزاوي.. تاريخ الميلاد 18 يناير 1937.. المهنة لا يهم.. فهي في الحقيقة ليست مهنته، بل دفع فيها أكثر من مائتي جنيه وكان من الممكن أن يضع مكانها أية مهنة كما قال له الذي استخرج البطاقة الشخصية.. ركز على الزاوي في صورته.. ابتسم على استحياء، صورة الجواز بلا غطاء رأس.. والصلعة تحتل أكثر من ثلثي الجمجمة وشاربه اقصر.. اقصر من المعتاد بعد أن هذبه قبل ذهابه لاستوديو التصوير وترك نفسه للمصور.. أجلسه.. طلب منه رفع رأسه وخلع الطاقية وطلب منه أن يبتسم ابتسامة لا تظهر اصفرار أسنانه.. امتثل للأوامر!

الابتسامة ما زالت معلقة على شفتيه يبحلق في صورته.. ما تبقى من الشعر على جانبي الرأس غزاه الشيب ... وحتى الشارب غلب عليه الشعر الأبيض ... أشفق الزاوي على نفسه عندما دقق النظر واستجمع قوة إبصاره في خط مستقيم ضيق واكتشف أن عينيه ضاقتا بعض الشيء ... تمتم في سره معزيا نفسه " الكثير راح " وراح يقلب في باقي أوراق الجواز التي تفحصها المسئول العراقي ... لقد فحصها المسئول العراقي ورقة ... ورقة إلا انه وضع ختم الدخول على صفحة واحدة ... وقرأ بصعوبة تاريخا في منتصف الختم يبدو انه تاريخ وصوله إلى مطار صدام الدولي 18 يناير 1990 (يوم الخميس).

عادت الحركة تدب في صالة الوصول يبدو أن الموظفين قدموا لاستلام الوردية ... حمل حقيبته ووضعها أمام مسئول الجمرك، التفت حوله ... لم يجد أحدا من المسافرين في صالة الوصول.. لقد سبقه في الخروج كل من كان معه على الطائرة ... عمل بالنصيحة وتأخر ... ولم يتقدم الصفوف إلا أن النصائح المفروض إتباعها في العراق تختلف عن نصائح مصر ... لقد افترسه مسئول الجمارك وتسلى به وعليه ... سأله عن محتويات الحقيبة الخشبية الضخمة التي أكل الدهر عليها وشرب وسأله عن مكان شرائها وإذا كانت مثل هذه الحقائب تباع في المتحف المصري بميدان التحرير ... لم يعرف بماذا يجيبيه خشية أن تخرج من فمه كلمة يساء فهمها ... كظم غيظه وأخبره إن الحقيبة بها بعض ملابسه وبعض الخبز الجاف " فايش " المعروف في صعيد مصر ... وجوزة صغيرة برطمان، نوع من الشيشة صناعة محلية وبعض المعسل و " قوالح " ذرة وخرطوشة سجائر كليوباترا، وأخفى عن مسئول الجمارك إن في طيات الحقيبة ما لا يقل عن عشرين صورة شخصية لابنه الأصغر " فرج " وانحنى ليفتح الحقيبة ... إلا أن مسئول الجمرك ربت على كتفه ومنعه من فتحها وأشار له بمغادرة صالة الجمرك ... في أمان الله ... في أمان الله ... كلمة السر لدخول العراق أو الخروج منه سالما!

الجو شتاء ... بارد لا ينذر بهبوط مطر إلا انه أشد برودة من الصعيد والقاهرة السماء ليس بها نجم واحد ... وليس لامعة مثل سماء مصر ... مظلمة ... مكفهرة ... وما يرتديه من ملابس لن يحميه من هذا الصقيع ... حمل حقيبته على كتفه وأطلق صيحته " يا عدوي " وخرج من المطار. قال له من نصحوه قبل خروجه من مصر إن هناك موقفا للأتوبيس على بعد ربع ساعة من المطار يعمل طوال الأربع والعشرين ساعة ... يسأل عن السيارة الذاهبة إلى العاصمة، فالمسافة من المطار إلى قلب بغداد لا تزيد عن أربعين دقيقة ... وفي بغداد عليه أن يدبر حاله ويبحث عن أهم شيئين ويؤجل الباقي ... البحث عن عمل وعن سكن وربما يجد عملا بأجر اقل مع سكن ... وهذه ميزة موجودة في العراق ... إلا أن تلك الميزة لا يعثر عليها المرء إلا بفضل دعاء الوالدين ... ميزة العمل مع السكن ستوفر الكثير ... منها مصروفات المواصلات

ومشقة السفر. وبعد الاستقرار عليه البحث جديا وبهدوء عما جاء من أجله على ألا يخبر أحدا بسره إلا بعد أن يثق به والثقة تأتي مع المعاشرة.

قرر الزاوي ألا يتحرك بعيدا عن المطار إلا مع خيوط الفجر ... النهار له عيون، هكذا علموه ... وهو في بلد غريب ... والغريب أعمى ولو كان بصيرا، فتح الحقيقة واستخرج قطعة من الملابس الثقيلة ليضعها على رأسه وكتفيه ويغوص في بعض الدفء وتطفو على سطح رأسه مرارة الذكريات. جاء إلى القاهرة هاربا بحياته ... تاركا زوجة وطفلا لا يزيد عمره عن أسبوع. ووصل بغداد مخلفا وراءه نفس الزوجة وثلاثة أولاد كبار ... رجال ... بالإضافة إلى صورة ابنه الرابع الغائب المعلقة على جدران الحجرة.

لا يعلم أين مكانه ولا سبب غيابه الذي طال إلا أن هناك إحساسا بأنه ما زال على قيد الحياة ... حي يرزق وهو نفس إحساس زوجته أم عياله " صابرة " ... يقولون إن قلب الأم لا يخطئ وكأن الأب بلا قلب ... هبط الزاوي على القاهرة وهو خائف من المطاردة ونزل إلى بغداد ... أرجفه البرد وقسوته وهاجمته الذكريات بمراراتها وعلى كتفيه وفي جوانبه سر ثقيل دفنه سنوات وسنوات ولم يطلع احد عليه ... ولا يعرفه سوى من عاصروه، تاريخ طويل أخفاه عن أبنائه الأربعة ... يعلمون أن أباهم من أسيوط كبد صعيد مصر، أما القرية والمركز وتفاصيل النجع وأحداثه وأفراده فقد حفر بئر ودفن فيه تاريخه، فهو ينتمي لنجع داخل قرية صغيرة تتبع مركز اكبر أحاط به العمران من كل جانب ثم اقتحمه إلا انه عصى أن يدخل القرية ويعمر قلوب أهلها أو يبدل من موروث الدم والثأر.

عام 1961 يتذكره علي الزاوي جيدا مثل تاريخ ميلاده رغم عدم اهتمامه بالتواريخ على الإطلاق ... فالأيام مثل بعضها والسنوات أسوأ من بعضها ... تعود أن يتذكر التواريخ بالمواسم والمناسبات ... صيفا أو شتاء ... قبل رمضان أو بعده ... ليلة المولد النبوي أو في منتصف شعبان ومع ذلك يتذكر تاريخ ميلاده جيدا وتاريخ إجباره على مغادرة القرية بالتقريب. غادر القرية عام 61 في بداية شعبان تقريبا وكان الشتاء يطرق الأبواب على استحياء وتزداد نسمات الشمال ليلا ... في ذلك العام كانت صور عبد الناصر تملأ الصعيد وصوته يجلجل في قراها ومراكزها ... قالوا حينذاك إن الرئيس جمال في طريقه إلى أسوان " عشان " السد العالي. في تلك الليلة غادر القرية وأهلها يستعدون لمصيبة ولكن في صمت أطبق على النخيل والدواب وحتى الكلاب امتنعت من النباح. وخرج ابنه الراب الغائب " فرج " إلى الدنيا في ليلة غضبت فيها مصر وأطبقت فيها الرطوبة على أنفاس البشر. خرجت مصر كلها تطالب عبد الناصر بالتخلي عن موقفه والرجوع فيما أعلنه ... سمع علي الزاوي كلاما لم يسمعه من قبل ... في تلك الليلة الخانقة جاء المخاض زوجته " صابرة " جاءها المخاض بعد ثلاثة أو أربعة أيام عصيبة ... أطلقوا عليها " النكسة ".

خيم الحزن على الجميع ... وتحاملت الزوجة وسارت على ذراع الزاوي إلى أن وصلت المجموعة الصحية في بولاق ... ذهبت إلى المستشفى بناء على نصيحة الطبيب ... عانت في شهور حمل " فرج " كثيرا مقارنة بالأولاد الثلاثة وأخذ حقنا كثيرة وحذره الطبيب من مغبة أن يتركها " للداية " وأكد عليه مرارا بضرورة الذهاب إلى المجموعة الصحية ولن يتكلف مليما واحدا ... لقد كانت الأمور غير الأمور. وصلت " صابرة " إلى المستشفى وتركها في يد الأطباء والحكيمة وذهب ليشتري لها بعض الاحتياجات ... رأى مظاهرات وجموعا من الناس ... سأل ... قال له الناس إن الرئيس عبد الناصر اعترف بمسئوليته عن الهزيمة وقرر التنحي، ولهذا خرجت المظاهرات تطالبه بالرجوع عن قراره.

عاد الزاوي إلى المجموعة الصحية ومعه احتياجات زوجته لتزف له الحكيمة الخبر " رزقت بطفل " وطلبت الحكيمة التي لم تكترث بالمظاهرات أو الهزيمة أو التنحي أن يعطيها " الحلاوة " ويختار اسم للمولود ... أجابها بلا تردد إن الأسماء في السماء قبل أن يولد الأطفال وقد أطلق على ابنه اسم " فرج " ودس في يدها آخر خمسين قرشا ورقية كانت معه ... فرج من الله ونصر قريب ... واصبح لعلي الزاوي أربعة أبناء ... نصر ويوسف وصفوت وفرج.

كان " فرج " أقرب أبنائه إلى قلبه ولا يعلم السبب ... قبل انه آخر العنقود وأن الرجل يحب أبناءه بالتساوي إلا أن الحب يزيد لبعضهم وقد سمع خاله يقول من قبل إن الحب يزيد للصغير إلى أن يكبر وللمريض إلى أن يشفى وللغائب إلى أن يعود و" فرج " هو أصغر أبنائه وهو الغائب منهم أيضا ولكن حبه لابنه الأصغر لا يقل كثيرا عن حبه لابنه الأكبر " نصر " الذي غادر القرية يوم " سبوعه " ولم يعد إليها حتى الآن ... يوم لا ينسى ... مرارته ما زالت في الحلق والبلعوم كانت العائلة تستعد لحفل " سبوع " نصر وزاد عدد الضيوف عما كان متوقعا، منهم من جاء من بحري وآخرون من قبلي البلد ... أعمام وأخوال علي الزاوي وأولادهم وبناتهم.

(2)

ذهب الزاوي في هذا اليوم قبيل العصر إلى محل فقير في أطراف القرية فقد تأخر صاحب المحل في إرسال أرز وسكر وأشياء أخرى دفعت فلوسها مقدما ولم تصل بعد إلى دار الزاوي ... تعلل صاحب المحل بأنه لم يجد صبيا لإرسال المطلوب معه، ووضع الأشياء جميعها في كرتونة كبيرة وحملها الزاوي على حماره ... مجموعة من الشباب أمام المحل أكد عليهم الزاوي ضرورة الحضور لحفل " سبوع " ابنه نصر ... سخر منه احد الشباب واستهزأ بقصر قامته وما به من عرج بسيط في ساقه اليمنى ... مشيرا انه رغم ذلك نجح في إنجاب صبي ... لم يتسامح الزاوي مع مثل هذه المزحة ... اشتد غضبه ودفع الشاب في صدره ليسقط على الأرض مغشيا عليه ... مشاجرة ... ظن أنها انتهت وبمجرد عودته لمنزله وصله خبر وفاة الشاب الذي " تهاوش " معه ... وأصبح الزاوي مطلوبا للثأر.

أمره خاله وحموه في نفس الوقت بتأجيل حفل " السبوع " إلى وقت آخر بعد تدارس أبعاد المصيبة التي لم تكن في الحسبان وانصرفت النساء والأطفال الذين جاءوا للمشاركة في الحفل وخرج بعض الشباب ليتفقدوا تطورات الوضع في أسرة القتيل ... إلا أن الكل وقبل مغادرة صحن الدار ألقوا ببعض النقود في الغربال الذي وضع فيه الصبي الوليد ... وعين الجدة " أم علي " ترصد من الذي ألقى بالنقود وقيمة المبلغ ... وتغطي الوليد بعملات فضية صغيرة ... فئة العشرة قروش والريال وبعض العملات الورقية أكبرها ورقة من فئة الخمسة جنيهات.

جمعت الجدة " النقوط " و " صرتها " في منديل دسته في يد " صابرة " أم الصبي وكأن شيئا لم يحدث خارج المنزل ... وذكرتها بكلمات واضحة لا لبس فيها أن " النقوط " سلف ودين سترد لأصحابها في الأفراح والمسرات ... إن لم تكن أكثر ... فلن تكون اقل في قيمتها. وخرج الرجال والشباب جميعهم من المنزل باستثناء علي الزاوي الذي صعد إلى سطح المنزل وانزوى ينعى سوء حظه وسوء تقديره للأمور، فقد كان يعلم مثل بقية أهل القرية أن القتيل هذا كان مرهونا على صفعة ... وجاءت الصفعة أو الدفعة منه لتحوله إلى قاتل.

لعنة الله على هذا اليوم ... فهو يذكر علي الزاوي بالانكسار وقلة الحيلة ... وجلسته تلك على الرصيف بالقرب من مطار صدام تذكره بالانزواء فوق سطح منزله قبل اتخاذ القرار، وها هو يجلس فوق حقيبته الخشبية مستعدا لبدء رحلة جديدة ... لا يعلم نهايتها إذا كان لها في الأصل نهاية، فرحلته الأولى لم تنته بعد، رغم مرور ما يقرب من ثلاثين عاما.

الجو ما زال باردا وصامتا ... حشرجة في السماء تهشم السكون ... بعيدة ولكنها واضحة ... أصوات المؤذنين يدعون الناس لصلاة الفجر ... الصلاة خير من النوم ... وهو ليس بنائم وليس بمستيقظ، جسده على مشارف بغداد

وعقله مشطور بين القاهرة وصعيد مصر ... الأصوات متداخلة ولكنها غريبة بعض الشيء فالآذان لا تخطئه أذن مسلم والمساجد التي توزع الأصوات لا تبدو قريبة ... والزاوي في انتظار النهار ... ويشق ضوء متردد ظلمة السماء ببطء وعينا الزاوي معلقتان لأعلى يستعد ليأخذ طريقه إلى قلب بغداد ... حمل حقيبته التي أصبحت أثقل وزنا بسبب ما لحق به من تعب وإجهاد وسار وراء نفر من الناس خرجوا لتوهم من المطار في طريقهم على ما يبدو إلى موقف الأتوبيس ... أسرع الزاوي الخطي ليصبح على مقربة منهم ليستشعر الدفء والشجاعة. الناس ليسوا بمصريين، فلا أحد يرتدي منهم جلبابا أو على رأسه طاقية أو " تلفيحة " تكشف انتماءه لأهل بحري أو أهل الصعيد ... بعضهم ملتح وعلى رأسه عمامة كبيرة ... مثل التي يرتديها الهنود ... سأل عن الأتوبيس المتجه للعاصمة وتسابق الكل يركب. وجد لنفسه مقعدا وضع عليه جسده المهدود وصوت المحرك القوي يزعق في الطريق ليصل إلى وسط العاصمة مع ضوء الشمس وظهور النهار. مسح بعينيه المكان ... المنازل بسيطة وليست عالية، الميدان يعج بأفراد يرتدون الزي العسكري زيتي اللون مثل جنود مصر.

نزل من الأتوبيس ليجد مقهى أمامه كما وصفوا له المكان بالضبط وهو ليس مقهى بالمعنى المعروف ... فهو مطعم يقدم وجبات الإفطار ... والشاي والقهوة ومشروبات أخرى، ويديره مصري ... سأل عن الإفطار الموجود ... أخبره النادل بعد أن رحب به إن كل شيء موجود فول ... طعمية ... عجة ... للمصريين ... " باتشه " لحم رأس ضان وكوارع وفتة للعراقيين ... بدأ بكوب شاي بحليب ليتيح لنفسه بعض الوقت في تأمل الوجوه الجالسة على المقهى، التأمل بالنسبة له ليس رفاهية ولكنه ضرورة من احتياطات الأمن والسلامة.

دب يده في جيب سرواله واستخرج سجائره والنقود التي معه ... مائة وستة وعشرين دينارا عراقيا وعشرة جنيهات مصرية ... وضع الجنيهات العشرة في جيب آخر ... فهذا المبلغ لن يستخدمه إلا بعد العودة إلى القاهرة ... فهو اجر التاكسي من المطار إلى منزله. وضع الجرسون أمامه كوب الشاي وسأله على غرة عن موطنه في مصر ... أجابه دون تردد انه من القاهرة ... من روض الفرج ... بعد كوبري إمبابة مباشرة منزله بالقرب من السكة الحديد وعلى بعد خمسة دقائق من سوق الخضار وانه قادم للعراق لأول مرة ... جاء ليجرب حظه ... كل هذه الإجابات ردا عن أسئلة الجرسون التي لم تنقطع والذي أطال فترة تقليب السكر في الشاي ليسأل المزيد منها. سأله الزاوي بدوره عن فرص العمل وإذا كانت متوافرة داخل العاصمة أو انه سيضطر إلى النزوح شمالا أو جنوبا ولم يجب عليه الجرسون والذي تعلم بحكم المهنة أن يأخذ ولا يعطي وأن يسأل ... ولا يجيب وقبل الانصراف من أمامه سأله السؤال الأخير عن مهنته، فهناك مهن مطلوبة وخاصة في مجال المعمار ... فأجاب بمهنته المدونة في جواز السفر " مبلط قيشاني " ومسك كوب الشاي لتسري حرارته في أصابعه الباردة.

الحركة لم تهدأ في المقهى المطل على موقف الأتوبيس ناس تدخل ... وآخرون يخرجون ... عدد الجرسونات الذين يعملون فيها أكثر من أي مقهى شاهده في مقاهي القاهرة ... أكثر من عشرة يقدمون الشاي والقهوة ووجبات الإفطار ... وأغلب الزبائن من المصريين القادمين من أماكن أخرى غير بغداد، بالإضافة إلى العسكريين، فموقف الأتوبيس كبير أشبه بموقف أحمد حلمي القريب من رمسيس بالقاهرة أو موقف الخازندارة بشبرا ... الخدمة فوق الممتازة والمكان نظيف وكل شيء موجود بالفعل ... شاهد بصلا أخضر يقدم مع الفول وخضرة كثيرة جرجير ورجلة وكرات ... على مقربة منه يجلس مصري لم يحرك عينه من فوق الأطباق التي أمامه ويرفع الجرسون أطباقا فارغة ويضع أطباقا أخرى، ظل الزاوي يرقبه ويسترق السمع إلى أن التقطت أذناه تكلفة الحساب ... عندك ... واحد فول واحد طعمية، سلطة وبصل أخضر ... وثلاثة عيش واثنين شاي ... واحد سادة وواحد بحليب 700 فلس ... يعني أقل من دينار ... سجع رخص الأسعار الزاوي على طلب إفطار ... نادى على الجرسون وبصوت خفيض ... طلبه واحد فول ... واحد طعمية ورغيفين، الحساب بالطبع سيكون اقل من 700 فلس ... واعتدل في جلسته ودفع الحقيبة الخشبية تحت المائدة بعدما شعر بشيء من الألفة، انتشلته حركة الناس ودفء المكان من بئر التفكير في ماضيه ومستقبله ... وضع النادل أمامه الفول والطعمة والخبز وسأله إذا كان لديه في بغداد معارف أو " بلديات " وأضاف أن معرفة الناس كنوز وبدون المعارف أو الأهل سيصبح من العسير عليه إيجاد عمل أو مكان يأوى إليه!

الإفطار كلفه أربعمائة فلس وبحسبة بسيطة، علم الزاوي أن وجباته الثلاثة لن تكلفة أكثر من دينار ونصف في اليوم وربما دينارين وبدأت المقهى تفرغ من فيها ولم يعد هناك سوى الزاوي ومصري آخر بالقرب من المدخل وأصبح صوت التليفزيون أعلى بكثير بعدما خرج الزبائن بأصواتهم وكلامهم ... نعم الجرسون له حق ... بدون معارف أو بلديات قد لا يستطيع العيش هنا ... " أهلك لتهلك " ... نعم أنقذه أهله في الرحلة الأولى ومن ينقذه في هذه المرة ... تائه في بلد غريب ... يا دليل التائه ... يا عدوي ... تمتم بها في صدره وطلب كوبا آخر من الشاي ودخل في صمته يقلب أيامه الماضية ولياليه.

حلاوة كوب الشاي هذه تذكره بأول كوب ناوله له خاله في " صدفا " بعد خروجه من قريته في يوم الحزن ... اجتمع الأهل بعد انصراف من جاءوا لحضور حفل سبوع ابنه بعد وصول خبر القتيل ونادوا الزاوي من فوق السطح، لينزل لهم وكأنه يراهم لأول مرة ... أعمامه ... يوسف وعبد الرحيم وعبد اللاه ومحمدي وأبناؤهم الذكور حوالي ستة أو سبعة ... أخواله ... ضاحي أبو زوجته صابرة وعمر ومحمود وابن خاله صفوت جاء بدلا من أبيه قاسم عمر الذي أعاقه قضاء بعض المصالح في صدفا عن حضور سبوع الولد نصر ... جاءوا جميعهم وكأنهم على موعد مع مصيبة وليس لحضور حفل إلا أن مجيئهم كان ضرورة ... فعلى الزاوي ليس له أخوة صبيان، نعم له أبناء عم إلا أن أخوته بنات ... خمس بنات، ووجود أهل أبيه وأهل أمه بربطة المعلم هذه " عزوة "

ستمنع أهل القتيل من اتخاذ قرار متسرع خاصة وأن أخواله ضيوف على القرية فأخواله عمايرة صدفا ... آخر مركز في أسيوط لا يبعد كثيرا هي مسيرة ساعة على الأقدام من قريته.

سأله كبيرهم ... خاله ضاحي عما حدث بالضبط وإذا كان هناك شهود على الواقعة وكان قد سمع من قبل كل روايات شباب العائلة عن الحادثة وخرج بنفسه إلى البقال واستمع منه ... إلا انه يريد أن يسمع علي الزاوي بنفسه أيضا ... وقبل أن يبدأ علي الزاوي حدثه ... نهره خاله وطالبه برفع صوته ... ورفع رأسه عند الحديث ... فهو ليس أول من يقتل في الصعيد ولن يكون الأخير، خاصة وانه لم يستخدم سلاحا ولم يخطط للجريمة، فقد جاءت الحادثة كلها عفوية ... طلب منه خاله " ضاحي " أن يحكي ولا ينكس رأسه، فالأيام القادمة تحتاج قلبا غليظا يتعامل بلا خوف مع كل الظروف وما يستجد منها، ومن الآن فصاعد عليه تحمل تبعات فعلته تلك ... وإذا خاف أو هاب ستكون نهايته ولن يأسف عليه احد، وإذا وقف وتجلد، فالكل معه وحوله لن يتركوه بأية حال ... سيدافعون عنه ويحمونه ... الأخوال قبل الأعمام، فقد اتفقوا فيما بينهم قبل استدعاء الزاوي ... الأعمام تخطيط وتمويل والأخوال متابعة وتنفيذ!

وتحدث الزاوي رافعا رأسه وصوته كما طلب خاله إلا أن نبرات صوته يغلفها انكسار ووقفاته بين الجمل تطول بعض الشيء ... فهو في الحقيقة لا يفكر في نفسه ... يفكر في أمه " نصرة " وزوجته " صابرة " وابنه " نصر " ... تحدث وأوضح انه ذهب إلى البقال لتأخره عن إرسال بعض الاحتياجات وهناك وجد مجموعة من الشباب ... سخر منه أحدهم ... سخر من قصر قامته وعرجه ... لم ينطلق بكلمة دفعه بيده في صدره ... سقط على الأرض ... تركه بين رفاقه ليرفعوه وغادر المكان سريعا إلى المنزل وجاءهم خبر الوفاة.

علق بعض أفراد الأسرة، بأن القتيل لم يترك أحدا في حاله ... طويل اللسان ودائم السخرية من الناس وانه لا يتحمل صفعة، فالكل يعمل أنه مريض " مرهون على كف ". البعض أوضح انه ذهب من قبل إلى طبيب مشهور في القاهرة وبعد أن رسم له قلبه بجهاز كهربائي ... قال له أنه في حاجة إلى عملية جراحية إلا أنه لم يعاود زيارة القاهرة مرة أخرى ولم يذهب إلى أطباء آخرين بعد طبيب مصر.

أوضح عمه يوسف انه عائد لتوه من منزل أهل القتيل، مضيفا أن أصحابه حملوه إلى منزله، ولم يكن قد أسلم الروح وجاءوا له على وجه السرعة بالطبيب ... لا يعلم اسمه أو عنوانه إلا أن الطبيب أوضح انه يعاني من أزمة قلبية حادة وقبل أن يغادر الطبيب الدار أسلم الروح ... معنى هذا الكلام كما تداخل عمه عبد اللاه أن علي الزاوي لم يقتله وانه مات موتة ربنا وبالتالي فإن الزاوي بريء من دمه، إلا أن عمه محمد أضاف بأنهم سيدفنونه في الصباح ولن يتقبلوا عزاء ... ورغم تصريح الدفن وكلام مفتش الصحة عن سبب الوفاة أنها سكتة قلبية إلا أن إصرارهم على عدم قبول العزاء يعني أن عليا مطلوبا للثأر.

تداولوا ... وعلا صوتهم واتخذوا في النهاية قراراهم ... لم يستغرق الأمر كله أكثر من ساعة، القرار هو خروج علي الزاوي من القرية الليلة إلى صدفا ... بلد أخواله ... الخروج سيرا على الأقدام على أن يصحبه خاله وحموه ضاحي وابن خاله صفوت قاسم عمر ... يبيتون هناك ليلتهم ثم يتجهون إلى القاهرة أو دمنهور محل إقامة وعمل ضاحي لإيجاد مكان لإيواء علي الزاوي. ويتجه أعمامه الأربعة وأبناؤهم الذكور جميعهم بعد الدفن بصحبة العمدة وشيخ الخفر إلى منزل القتيل للتفاوض ... فهم على استعداد لدفع الدية. فإذا كان على الزاوي قاتلا فما حدث هو قتل خطأ بغض النظر عن مرض القتيل، فإذا وافقوا ... جيء بعلي الزاوي لتقديم كفنه ودفع المطلوب وإذا رفضوا يكون الزاوي قد وصل مصر وذاب وغاص بين أهلها وعليهم تحمل تبعات الثأر الحقيقي.

بكت الزوجة " صابرة " عندما علمت بالقرار ولم تنطق الأم نصرة بكلمة ... كانت صلدة طلبت لابنها الصبر والقوة وأعدوا له بعض أشيائه على عجل وأعطته زوجته كل نقوط الطفل نصر وقبل أن يخرج من غرفته ... أغلقوا بابها وطلبت منه الأم والزوجة أن يضع يده على الباب ويقرأ قول الله تعالى " إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد " ثلاث مرات ... وقبل أن يقرأ الآية انحنى على ابنه نصر ليقبله وعاد ليقبله مرة أخرى أشد ... ويطبع على جبهه اللينة قبلة عميقة لا تمحوها السنوات، الوليد كتلة من اللحم الطري بلون طمي النيل، تماسك علي الزاوي وأمه وأجهشت " صابرة " بالبكاء ... وضع يده على الباب المغلق وقرأ الآية ثلاث مرات وخرج من الغرفة ... ولم يعد إليها ... حتى الآن لم يعد إليها منذ ما يقرب من ثلاثين عاما مات خلالها من مات من الأعمام والأخوال وولد عشرات الأطفال وأمه نصرة تنتظره هناك.

من بلدته إلى صدفا ... أكثر من ساعة سيرا على الأقدام بين الحقول ... لم ينقطع حديث صفوت ابن خاله ... يحكي قصصا وحواديت ويحاول أن يخفف من ضغوط الزاوي فهو بمثابة الحارس والسامر والمشرف على الرحلة وهو أول من تعلم من شباب العائلة ... ذهب إلى مصر وحصل على الشهادة وتم تعيينه في سوهاج مدرسا ... في بندر سوهاج ورغم أن هناك أربعة مراكز تفصل بين صدفا وسوهاج إلا أن صفوت اعتاد أن يستيقظ قبل الفجر ويصل مدرسته قبل السابعة وكان يحفظ الطريق شبرا شبرًا من قرية عمته أم الزاوي إلى بلدته صدفا ... فهو يحفظ فلنكات السكة الحديد من صدفا إلى سوهاج ويعرف عدد أعمدة التلغراف ... يتباهى بذلك كله محاولاً التخفيف على ابن عمته إلا أن علي الزاوي في واد آخر ... عليه بلادة وقتامه أثارت قلق صفوت ابن خاله وشعر أن الزاوي قد لا يتحمل رحلة الهروب وقد يعود وحيدا ليسلم نفسه إلى أهل القتيل مما قد يمرمغ سمعة الزواوية والعمايرة في بر الصعيد كله.

صفوت مدرس حساب ... كلامه بالمسطرة كما يصف كبار العائلة، إلا انه تحدث أكثر من اللازم خلال الطريق والزاوي يسير منكس الرأس ملتزما الصمت وكأنه يسير في جنازة، مهمة صفوت قد تفشل إذا استمر الزاوي على ما هو

عليه، يجب إيقاظه وتشغيل حواسه، توقف صفوت فجأة وخبط عصاه على الأرض " زقلة " في طرفها قطعة حديد، السلاح الذي خرج به من منزل الزاوي ... خبط عصاه واستدار للزاوي وأبلغه بلغة حاسمة إن منطقة الأمان انتهت، وأنهما دخلا سويا منطقة الخطر!

وانتصب بالفعل حواس الزاوي وحاول أن يسحب يد صفوت للاستمرار في السير، إلا انه أطال وقفته ليشرح للزاوي، ما غمض عنه، لقد انتهت حدود القرية وبالتالي لم يعترض احد طريق صفوت فهو وإن كان ابن خال الزاوي المطلوب منذ عدة ساعات للثأر، إلا انه في النهاية ضيف ... الضيافة لها قدسيتها في الصعيد وطالما بقي على أرضهم وجب عليهم حمايته أما وقد انتهت الحدود ودخلوا في زمام صدفا، فلن يلومهم احد إذا أطاروا رأسه بالرصاص هو وابن عمته الزاوي.

استشعر الزاوي حقيقة الخطر وانتهى مفعول المخدر الذي سرى في جسده منذ أن فعل فعلته ودفع القتيل في صدره، وأسرعا الخطى لدخول صدفا من الجهة البحرية ... جهة المقابر إلى أن وصلا دار الحاج عمر قاسم المواجهة " لزم " لمركز شرطة مدينة صدفا. المسافة بين قرية الزاوي ومنزل خاله في صدفا حوالي سبعة كليو مترات والدخول من المقابر أطال الطريق بعض الشيء، إلا انه بمجرد دخولهم المنزل استقبله خاله بهدوء شديد وترحاب أشد وأمر أحد أبنائه بإحضار إبريق من الماء الدافئ ليغسل علي الزاوي وجهه وهمومه مؤقتا، فقد وصلهم خبر الحادثة قبل أن تطأ قدم علي الزاوي أرض صدفا بساعات.

أعد طعام على عجل ... بيض مقلي في سمن وجبن أبيض وجبنة قديمة وخبز ساخن وتحولت الدار إلى خلية نحل، طلب الخال من أبنائه مغادرة الحجرة وألا يبقى فيها إلا علي وصفوت وهو ... وبعد باسم الله مدوا أيديهم إلى الطعام ... أول لقمة تدخل فم الزاوي منذ الصباح ... والليل قد انتصف أو أكثر وأعاد الخال قاسم عمر على مسامع الزاوي ما قيل له في قريته قبل المغادرة على لسان أخواله الآخرين ... " لست أول من قتل في الصعيد ... ولن تكون الأخير " وما حدث قد حدث وانتهى وعليك مواجهة ما تأتي به الأيام ... إذا تجلدت فالكل معك وإذا خارت قواك سينفض أهلك من حولك ... كان الزاوي يستمع وصفوت ينصت وكلام الخال يصحبه صوت الأسنان ومضغ الطعام ونباح كلب متقطع خارج الدار.

بقيت ساعات قليلة على صلاة الفجر والقطار " المبحر " الذاهب إلى القاهرة يدخل محطة صدفا بعد الفجر بنصف ساعة ويصل القاهرة العاشرة ليلا تقريبا. ولم تذق عينا الزاوي النوم وتركهما الخال في الحجرة، ترك علي الزاوي وابنه صفوت ليستريحا بعض الشيء ليتلو عليهما قبل صلاة الفجر التعليمات النهائية. انقضت ساعة أو ساعتان وأيقظهما الخال بهمهمة معروفة عنده، فتح الزاوي عينيه مذعورا وكأنه يرى وجه خاله لأول مرة ... الشارب ضخم كث ... التقاطيع حادة ... الأنف كبيرة يحتل ثلث الوجه ... العيون لا ترمش والجثة ضخمة ... كان أهل البلد يقولون إن علي الزاوي لم يرث من أخواله شيئا

سوى الطيبة ... اعتدل الزاوي وصفوت في جلستهما وأفسحا مكانا للخال، أعاد على مسامعه مرة أخرى بألفاظ أكثر حدة وتحديدا ضرورة التجلد والصبر وأفهمه انه لا خوف على الإطلاق على أمه نصرة أو زوجته صابرة أو ابنه نصر ... الخوف كله عليه، إذا خاف هو ... والخطر منه إذا جبن وضعف.

صفوت سيلازمه إلى أن يصل القاهرة، فقد قضى أربع سنوات في دراسته بمصر ويعرفها جيدا وسيدبر له السكن وسيصله أول كل شهر مبلغ من المال يكفيه إلى أن يدبر حاله ... وأمرأته وابنه سوف يلحقان به عندما تسمح الظروف وزيارات أمه سيخطط لها في الوقت المناسب ... القطار سيدخل القاهرة ليلا ... حوالي العاشرة ... وأهم نقطة ألا ينزلا في محطة مصر أو الجيزة، فقد يرصدهما احد أبناء القرية ... صفوت يعلم كل شيء عن مصر والأفضل لهما أن يقفزا من القطار في مسافة قبل عبوره كوبري إمبابة أو بعد خروجه من الكوبري مباشرة فالقطار يتوقف هناك عدة مرات ... والمكان هناك آمن بالرغم من قربه من سوق الخضار المليء بالصعايدة، فقد عاش صفوت في تلك المنطقة سنواته الأربع وسيبحث له عن غرفة في المربع الذي أقام به، حيث إن أغلب سكانه من " البحاروة " ... سارت الأمور كما أراد لها الله أن تسير ... وقفزا من القطار بعد توقفه بعد الكوبري مباشرة وانتهت رحلة علي الزاوي الأولى ودخل في رحلته الثانية.

لازمه صفوت في رحلته بالقاهرة ثلاثة أيام ثم رجع إلى صدفا، كان متعلما يفهم، استفاد من مجانية التعليم واستفاد علي الزاوي منه خلال أيامه الثلاثة في القاهرة ما لم يستفده طوال حياته، وفر له السكن وأفهمه كيف يتعامل مع البشر ... مصر تختلف كثيرا عن الصعيد ... الناس مشغولة ومهمومة بلقمة العيش، لا يدسون أنوفهم في شئون الغير ... ولا يقتربون منك إلا بقدر اقترابك أنت منهم ... فلا تقترب إذا كنت ترغب في الاحتفاظ بسرك ... وحياتك معلقة بسرك وأهل القتيل لن يتركوك، سيقلبون مصر وسيبحثون عنك وراء كل حجر وفي كل مدينة وقرية ... عليك تجنب الخروج من سكنك قدر استطاعتك ... طعامك اشتر منه ما يكفيك لمدة أسبوع أو أكثر ... لا تخلع التلفيحة من على رقبتك والجزء الأكبر من وجهك والطاقية تغطي رأسك وسأخبر صاحبة المنزل بأن رقبتك بها أثار حرق قديم لا ترغب أن يشاهده الناس ولا تتداخل معها وعلاقتك تبدأ وتنتهي بقيمة الإيجار الشهري ... لا تجعل ما تعلمه عنك يزيد عن انك من الصعيد من أسيوط ... لا تذكر اسم القرية أو المركز وسيظل سرك معك في بئر صمتك العميق ... نصائح صفوت أغلى ما سمع طوال حياته ... والآن يجلس في المقهى وحيدا ... في بلد غريب ... لم يسمع تعليمات خاله ولم يصحبه صفوت في رحلته وقد مضت عليه ساعات قليلة في بغداد، إلا أنه سيفتقد صفوت كثيرا والذي لو كان يعلم برحلته هذه لجاء معه وأخذ أجازة من وزارة التربية والتعليم لقد تدرج في الوظيفة وأصبح مفتشا وتدرج علي الزاوي في الدنيا وأصبح لديه من الأبناء أربعة ... منهم فرج الغائب الذي جاء من أجله إلى العراق!

(3)

الجو صحو والدفء سرى في عروقه بعد تناول الإفطار وشرب الشاي. الشاي مختلف في رائحته ومذاقه، فهو على ما يبدو شاي أصلي بينما الذي يباع في القاهرة نشارة خشب ... ولكن من أين له بصفوت الآن. ترن جملة الجرسون في أذنه " بدون معارف أو بلديات قد لا تستطيع العيش هنا المشكلة الآن في المأوى ثم العمل، في مصر قالوا له ستجد عملا ... هذا أمر مفروغ منه لكن لا ترفض ما يعرض عليك، والعمل عند العراقيين أفضل بكثير من العمل لدى مصري، فالمصري لا يمارس " فرعنته " إلا على مصري مثله ... وحذروه قبل مجيئه من الجلوس طويلا على المقاهي، فقد يصبح عرضة لمن يسمونهم " قسم شئون العرب " وهم تقريبا مثل المباحث في مصر، يصطادون القادمين الجدد من المصريين ليجندوهم في التجسس على المصريين وفي حالة رفضهم يحولون حياتهم إلى عذاب ويطاردونهم إلى أن يغادروا العراق.

لماذا لا يتعامل مع شئون العرب هؤلاء إذا كانوا هم الطريق للعثور على ما جاء من أجله ولكن كيف يعرفهم؟ لم يسأل علي الزاوي في القاهرة إذا كانوا يرتدون ملابس خاصة بهم أو أنهم يرتدون ملابس عادية مثل المباحث ... من أين له هنا بالمعارف والبلديات ... وحتى في الطائرة وخلال ما يزيد على ثلاث ساعات لم يتعرف على احد من العراقيين، فقد نصحوه قبل سفره بعدم الحديث مع احد، حتى الجالس بجواره كان يستمع له فقط ولم يكن عراقيا ... كان فلسطينيا أخبره أنه يقيم في العراق منذ سنوات وأعطاه ورقة قبل هبوط الطائرة فيها اسمه وعنوانه وطلب منه أن يتصل به دون تردد إذا احتاج شيئا في العراق، تذكر الورقة فتش عليها في جيوبه ... عثر عليها وقبض عليها براحة يده إلى أن أتى الجرسون ليسأله إذا كان يحتاج مزيدا من الشاي.

الفرصة جاءته ... المقهى خاو والجرسون يرغب في الدردشة أو الحصول على مزيد من المعلومات من القادم الجديد الذي لم يغادر مقعده رغم مضي عدة ساعات، سأله عن أحوال السكن وإذا كان يمكن العثور على حجرة بمفردها وكم يكون إيجارها، تظاهر بعد سماع السؤال وكرر مقولته إن الحياة هنا صعبة بدون معارف أو بلديات، فلا احد يستأجر شقة أو حجرة هنا بمفرده، بل يعيش مع مجموعة وبالتالي لا تمثل قيمة الإيجار مبلغا كبيرا، فتح قبضة يده وأخرج الورقة التي معه، قدمها للجرسون وقال له أنها بها اسم شخص تعرف عليه في الطائرة وعرض عليه المساعدة، قرأ الجرسون الاسم بصوت عال: يوسف محمد عبد المجيد أبو سمرة – بغداد – المسيب المعسكر الفلسطيني الخاص وطوى الورقة وأعادها إليه ومط شفتيه وأجزم له أن الفلسطيني لن يساعده وعليه البحث عن معارف مصريين أو بلديات!

المحاولة الأولى فشلت والصبر أصبح من سمات على الزاوي ... لم يمتعض ولم يتأثر وكأن شيئا لم يحدث ليقطع حديثهم قادم جديد ... مصري الهيئة والسحنة وإن كان يبدو من أهالي بحري ... ألقى التحية وألقى بنفسه

على مقعد بجوار الزاوي وطلب كوبا من الشاي وانصرف الجرسون لإحضاره. ربما يكون ساقه الله في هذا التوقيت بالذات لعلي الزاوي وربما يكون من شئون العرب الذي يأمل علي في العثور على احد منهم ... هيئته لا تدل على انه مباحث أو حتى مخبر، فهذه النوعية من البشر خبرها جيدا الزاوي في القاهرة، فهم دائما يتظاهرون بالعظمة بينما الرجل الجالس بجواره والذي لا يفصله عنه سوى المائدة الصغيرة يبدو مكسورا ... الانكسار يغطي وجه ويغلف نبرة صوته، كما أن الجلباب الذي يرتديه ليس من النوع الغالي ... يباع مثله في أسواق العتبة بالقاهرة ولا يزيد سعره عن خمسة عشر جنيها ويقولون انه مستورد من السعودية وربما يكون هذا الجلباب مثل بالطو مخبر مصر زمان!

طغت على مخه نصيحة ابن خاله الغالي صفوت ... " الناس لا تقترب منك إلا بقدر اقترابك أنت منهم " ولم يطل انتظاره لاقتراب الرجل منه سأله إذا كان يقيم بالعراق أو قادما جديدا أخبره انه وصل فقط ليلة أمس وأخبره الرجل بأنه وصل العراق منذ خمسة وستين يوما وأجهش بالبكاء ووجد الزاوي نفسه يقف على قدميه ويربت على كتفه ويحتضنه ليوقف البكاء ويأتي الجرسون بالشاي ويهدأ الرجل بعد حين، ويهمس الجرسون في أذن علي أن هذا الرجل يظهر كل عدة أيام في هذا المقهى ... يطلب كوبا من الشاي أو وجبة طعام ثم ينفجر في البكاء ويهدأ ويغادر المقهى ليعود وقد استمر هذا الحال ما يقرب من شهرين حتى الآن.

اقتراب الزاوي منه بعد أن هدأ ليسأله عن سر بكائه فانفجر في نوبة بكاء جديدة فطرت قلب الزاوي وهزته بعنف، فالرجل الجالس بجواره يقترب من عمره وربما يكون قد تجاوز الستين، زادت نهنهته وأفرغ ما في جيبه على الطاولة التي تفصله عن الزاوي ... مجموعة صور وخطابات ... صور لابنه الذي جاء من أجله إلى العراق ... ابنه الذي انقطعت رسائله مثل رسائل غيره التي انقطعت فجأة وبدأت تصل إلى القاهرة بدلا منها توابيت تحمل جثث القتلى في العراق أخبره الرجل عن معاناته منذ وصوله إلى بغداد والتنقل منها إلى مدن وقرى العراق الأخرى وأخبره عن اسمه وعنوانه: السيد محمود الشلقاني من دمياط وسحب صورة من الصور الملقاة على المائدة ... صورة لشاب في العشرينات صورة ابنه " طه " الذي اختفى.

خمسة وستون يوما ... زار السفارة المصرية عدة مرات ... قابل المستشار العمالي المصري يوسف شرف الدين ... ذهب إلى الأمن العام في بغداد ... فتش في كل المستشفيات، قابل كل زملاء ابنه وأصدقائه الذين عمل معهم في العراق ... أغلبهم بلدياته من دمياط ولم يعثر له على اثر حتى الآن ... الولد كان نجار في دمياط سافر عندما ضربت هوجة السفر شباب مصر وأتى إلى العراق وافتتح مقهى ... عمره لا يزيد عن ستة وعشرين عام وأجهش الرجل مرة أخرى بالبكاء ... خمسة وستون يوما من العذاب ... يتصل كل ثلاثة

أو أربع أيام بدمياط في شارع فكري زاهر في سوق الخضار القديم ليخبر زوجته انه ما زال يبحث عن طه ولن يعود إلى مصر إلا وهو معه والأم في دمياط تكاد تجن ... لا تنام وإذا نامت تفزع وتصرخ في أنصاف الليالي ووجد الزاوي نفسه يكاد أن يبكي مع الرجل!

لقد جاء لنفس الغرض إلا انه لا يرغب في الإفصاح عنه كما نصحوه ... جاء من اجل " فرج " ابنه الرابع الذي انقطعت أخباره ورسائله فجأة بعد أن أمضى أكثر من ثلاث سنوات في العراق ... تنقل بين مدنها وقراها وكان يرسل لهم الرسائل ... كل مرة تحمل عنوانا جديدا انتقل إليه ومدينة جديدة يعمل بها وقصصا وحكايات عن العراق ... وفي آخر رسالة أو الرسالة قبل الأخيرة وعد أسرته بمفاجأة عند قدومه إليهم في الأجازة القادمة ولم يتحمل طويلا ففي الخطاب الأخير أرسل لهم صورة وبجانبه فتاة مليحة ... أخبرهم في الخطاب انه عقد قرانه عليها وتزوجها ... كانت الرسالة الأخيرة ... مضى عليها ما يقرب من عام.

نفس المأساة ... هي مأساة " فرج " و " طه " ومئات غيره من المصريين الذين قدموا إلى العراق ثم انقطعت رسائلهم فجأة ... السيد محمود الشلقاني لا يختلف كثيرا عن علي محمد يوسف الزاوي ... يحمل أوراقا وعناوين وصورا لابنه طه، بينما صور فرج ابن الزاوي ما زالت في قاع حقيبة والده الخشبية، هل يفتح الحقيبة ويطلع الشلقاني على صور ابنه، هل يتفقان ويبحثان سويا عن ولديها أو يحتفظ بسره ويسير في خطته؟ لقد فشل الأمن العام في العثور على طه ولم تساعد السفارة المصرية السيد الشلقاني ولم يعثر عليه في مستشفى مريضا أو جريحا ولم يعثر عليه جثة في مشرحة ولم يفده أصدقاء طه أو معارفه أو بلدياته ...

يا دليل التائه ... يا عدوي!

خرج السيد محمود الشلقاني من المقهى يجر رجليه التي أضناها السير في طرقات بغداد وما حولها وهرع الجرسون يحذر الزاوي من الجلوس معه مرة أخرى إذا رآه، فالشرطة تتابع خطواته والكل هنا يعلم قصة ابنه طه الذي افتتح مقهى وأتى بشباب من بلده دمياط للعمل معه وتوسع نشاطه ودخل في التجارة بجانب المقهى حيث كان يستورد دخان معسل من مصر بآلاف الدنانير مع شركاء عراقيين واختلفوا فيما بينهم وحضرت سيارة أمام المقهى بها ثلاثة رجال ... اختطفوه ولم يظهر بعدها ... وقد لا يظهر أبدا ... المصريون العاملون معه بالمقهى لا يرغبون في توريط أنفسهم ولم يدل منهم احد بشهادته أو أوصاف الرجال أو نوع السيارة ورقمها بالرغم أنهم شاهدوا بعيونهم الحادث الذي لم يستغرق سوى دقائق قليلة ... الرجل يكاد عقله أن يطير ولن يدله احد وسيعود مثلما جاء!

وقع كلمات الجرسون على قلب الزاوي مثل طلقات الرصاص، إذا استسلم سيصبح حاله مثل حال الشلقاني هذا، نفض رأسه في محاولة لطرد الهواجس، ابنه لم يعمل بالتجارة ولم يختلف مع احد طوال حياته، مسالم لا يسمع له صوت ... يبعد نفسه عن المخاطر ويحسب خطواته وحتى زواجه من الفتاة العراقية جاء بعد موافقة أسرتها كما ذكر لهم في آخر رسالة وانتقل ليعيش ويعمل معهم في مدينتها، إلا أن الجرسون استمر في تحذيره للزاوي، مؤكدا له أن المصريين لم يعد مرغوبا فيهم بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية وبعد عودة الشباب العراقي من الجبهة والذي وجد فرص العمل مغلقة أمامه بسبب المصريين وسأله في النهاية هل سيتناول غذاءه في المقهى أو سيتجه إلى حال سبيله!

عيون الزاوي على السيد الشلقاني وكلمات الجرسون اخترقت طبلة أذنه لتستقر في قلبه، ها هو الشلقاني لم يغب عن عينيه لقد توقف على الرصيف المقابل يتحدث مع بعض المصريين الذين فيما يبدو يعرفونه أو من بلدياته الشلقاني هذا فرصة الزاوي الذهبية والتي قد تساعده في الوصول إلى ابنه تحرك الجرسون قليلا أمام الزاوي ليغلق عليه زاوية الرؤية التي يطالع منها الشلقاني وعاد ليسأله مجددا إذا كان سيتناول الغذاء في المقهى أو سيغادر إلى حال سبيله، وقف الزاوي على قدميه حتى لا يضيع الشلقاني من أمام عينيه وأبلغ الجرسون، انه سيتناول طعامه هنا وهو لا يعرف حتى الآن في بغداد مكانا غير هذا المقهى، مستأذنا في ترك الحقيبة لدى الجرسون بعض الوقت ليتجول في الشارع قليلا وبمجرد أن شعر بتردد الجرسون في قبول عرضه بترك الحقيبة فتحها وطلب منها إلقاء نظرة على محتويها ... بعض الملابس وخبز جاف وأغراض أخرى وقبل أن يعلن الجرسون موافقته أغلق الحقيبة وقدمها له مؤكد انه لن يتأخر أكثر من ساعة.

السيد الشلقاني فرصته ولن يتركها تتسلل من بين أصابعه سيسير وراءه خلسه يراقبه وقد حذره الجرسون من الجلوس معه لأن الشرط تتابع خطواته ... الشرطة يعني المباحث ... وربما شئون العرب الذين سمع عنهم في مصر قبل مجيئه إلى هنا ... فرصة قد لا تتكرر وقد يستطيع أن يتعرف على من يراقبوا الشلقاني ليلقي بنفسه في طريقهم لعلهم يجندونه ... وكله خير ... فهو لن يتجسس على المصريين بأية حال من الأحوال لكنهم قد يسهلون له مهمته في العراق ... وقد يساعدونه وقد يوفرون له المسكن والعمل ... وإذا اضطر لأن يقص لهم قصته، فهو لن يضار خاصة وأن ظروف الشلقاني مثل ظروفه وهو في العراق لمدة خمسة وستين يوما كما قال ولم يمسه احد ... ولم يقبض عليه احد ... تاركينه في الشوارع يبحث عن ابنه وقد سافر إلى أكثر من مكان خارج بغداد ولم يعترضه احد!

الشلقاني هذا أصبح صاحب خبرة يفتقدها الزاوي ولو وضع يده في يده قد يتوصلان سريعا إلى ابنيهما ... فرج ابن علي الزاوي الذي اختفى في العراق وانقطعت رسائله منذ ما يقرب من عام ... وطه ابن السيد الشلقاني الذي قال الجرسون إن هناك رجالا اختطفوه من أمام المقهى وأمام الناس، والثانية

أن الشلقاني دمياطي من دمياط وكما أخبره الجرسون أن الدمايطه في بغداد عددهم بالمئات إن لم يكن بالألوف وتقربه إلى الشلقاني قد يقربه من بعضهم. ورغم النصيحة الغالية التي عمل بها طويلا ؛ ألا يقترب من الناس إلا بقدر اقترابهم منه، إلا انه في حاجة أن يقترب هو من الناس أكثر من حاجتهم إليه ... ويبدو أن نصائح مصر لا تسير في العراق وأن أسلوب التخفي الذي مارسه طوال ثلاثين سنة في مصر لن ينفع في العراق فوراء كل رجل مخبر ... وراء كل مخبر مخبر وربما عرفوا انه جاء إلى بغداد بحثا عن ابنه فرج!

الشلقاني هذا فرصته ويجب ألا يضيعها، بلدياته الكثيرون في بغداد ربما وفروا له المسكن والعمل على الأقل خلال الأيام الأولى له هنا وهو لن " يستنطع " ويقيم معهم بلا اجر، بل على استعداد لدفع قيمة الإيجار إلى أن يعثر على عمل، وفرص العمل كما قالوا له كثيرة وسيجد بمشيئة الله عملا في مطعم أو مقهى قبل أن ينهي هذا الشارع، فقد أكد له ذلك كل من استمع إليهم في القاهرة قبل أن يعقد العزم على المجيء للعراق ... نصحوه أن يسأل أصحاب المحلات والمطاعم عن أية فرصة عمل وحذوره من العمل لدى المصريين، فالعراقيون أكثر طيبة من المصريين وإذا وثقوا به لن يفرطوا فيه أبدا، المهم الثقة وهي تأتي بالتعامل وأن يكون أمينا ... وقد عاش أمينا طوال حياته وأن يحترم المكان الذي يعمل به أو المكان الذي يقيم فيه ... والاحترام واجب تعلمه والتزم به طوال حياته، لم ينظر لامرأة في طريق ولم يأكل حق احد!

المشكلة تتلخص في طريقة دخوله مرة أخرى على الشلقاني ... وطريقة قبول الشلقاني له والمشكلة الأخرى هي سره الذي يقلقه وهل يفصح عنه لهذا الدمياطي الذي لم يعرفه إلا من عدة دقائق، الشلقاني ما زال يتحدث مع معارفه على الرصيف المقابل للمقهى والزاوي يكمن مكانه يرقبه، فإذا نادى عليه قد يثير شكوكه وإذا سار خلفه قد يثير مخاوفه خاصة وأن حال البلد واضح من عنوانه ومن مطاره ومقاهيه، أنهى الشلقاني حديثه مع معارفه ويبدو أنهم كانوا يسألونه إلى آخر ما توصل إليه من أخبار بشأن ابنه طه ... تصافحوا وانصرف وبعد أن قطع خطوات ... هم الزاوي ليتابعه. الشارع مكتظ بالناس والسيارات والمارة يعبرون الطريق من أي مكان دون أماكن العبور ودون انتظار لإشارات المرور ... الوضع قريب جدا من شوارع القاهرة، نساء متوشحات بالسواد مثل نساء بلده في أسيوط وبنات موضة مثل بنات القاهرة ... عين على الناس والمحلات وعين لا تفارق أقدام الشلقاني الذي هم بدخول مقهى آخر ويبدو أن الرجل أصابه لطف ... يسأل كل من يقابل سواء يعرفه أو لا يعرفه عن ابنه طه!

الجرسون الذي حذر علي الزاوي لم يكن كاذبا فهناك رجل عراقي كان يسير على بعد خطوات من الشلقاني دخل المقهى في " كعبه " ... وراءه مباشرة وقصر الزاوي من خطواته حتى لا يلحق بهما داخل المقهى ... الناس كلها في المقهى تعرف الشلقاني الذي جلس أمام طاولة كبيرة غير طاولات

المقهى السابقة يجلس حولها جمع من المصريين أغلبهم بحارة، يستطيع الزاوي تمييزهم بسهولة إما من لون البشرة أو طريقة قص الشارب أو باللكنة وطريقة الحديث. ألقى الزاوي عليهم بالتحية وجلس بينهم كأنه يعرفهم لم يسأله احد من أنت بينما العراقي جلس على طاولة ليست ببعيدة وطلب كوبا من الشاي بصوت عال، ليهرع إليه الجرسون وكأنه الزبون الوحيد في المقهى، المصريون الجالسون لم يعيروا العراقي القادم اهتماما على الإطلاق، يبدو أنهم يعرفونه ... ويعرفون انه مخبرا!

سأل المصريون الشلقاني عن آخر الأخبار التي توصل إليها بخصوص طه ... لعن الشفارة المصرية ومن فيها، فقد منعه رجال الأمن من الدخول صباحا إلى مقر السفارة وأبلغوه من وراء الباب الحديدي الضخم انه مثل كثير غيره ممن اختفوا في العراق والسيد السفير يتصل ليل نهار بالجهات المسئولة وعندما يتوصلون إلى خيط، فلديهم عنوانه وسيخبرونه، ولا داعي لقدومه مرة أخرى للسفارة ... ذكر الشلقاني رجال أمن السفارة بالاسم ودعا على كل منهم وامتدح من المسئولين المصريين شخصا واحدا وهو يوسف شرف الدين، حفظ الزاوي اسمه لأنه على اسم ابنه الثاني يوسف دعا له الشلقاني بالستر والصحة وأن يسترها الله معه ومع أولاده، فقد أعطى له " كارت " به اسمه وعنوانه وأرقام تليفوناته وطلب منه أن يتصل به في أي وقت وعندما يتوصل هو إلى شيء بخصوص طه، سيتصل تليفونيا بالحاج سعيد النظيف صاحب معمل الخياطة بمنطقة " المربعة " في بغداد والذي يعتبر عمدة الدمايطه والمصريين.

كل شخص من الجالسين يسمع جزءا من رواية الشلقاني وينصرف إلى حال سبيله، والعراقي الجالس والمتشاغل بإبريق الشاي والأكواب يمط أذنيه إلى الطاولة التي يجلس بجوارها الشلقاني ورفاقه، بالفعل الجرسون لم يكن كاذبا، فالشرطة تعد أنفاس الدمياطي المفجوع بفقدان ولده وستعد خطوات الزاوي إذا علمت بمهمته إلا أن المحتاج يركب الصعب " وعليه بقبول كل التبعات فقد جاء إلى هنا وهو يعلم أنها ليست نزهة ولن يعود إلا ابنه " فرج " معه وإذا أستطاع أن يستفيد ويفيد فلا مانع وإذا كان الشلقاني أو المخبر الجالس هناك أو أيهما سيساعده في مهمته ... فلا ضرر!

انفض المجلس وانصرف الناس إلا الزاوي وأجهش الشلقاني بالبكاء من جديد ... أنها فرصة الزاوي للاقتراب منه ومحاولة تهدئته واستكشاف إمكاناته وبحث سبل التعاون معه ... اقترب منه مما أزعج العراقي المراقب والذي لم يصله حوارهما، فطلب بلغة لا تخلو من أمر بغلق التليفزيون الذي سبب له صداعا وانتقل ليجلس على مقربة من الزاوي والشلقاني وهرع الجرسون وأغلق الجهاز وسألهم إذا هناك من يريد طلبات أخرى ... الشاي " ويسكي " الصعايدة ... طلب الزاوي إبريقا من الشاي بعدما رأى أن المقهى يقدم الشاي في إبريق كبير ... أشبه بالبراد الأزرق الموجود في مصر وأحضره الجرسون على عجل وصب كوبا للشلقاني وترك الزاوي يصب شايه بنفسه وتركهما إلا أن عيون العراقي تحوم حولهما مثل عيني صقر.

(4)

خفف الزاوي من هموم الشلقاني وأوقفه عن البكاء بعدما طلب منه الصلاة على النبي وزيادة النبي صلاة وسأله إذا كان يشعر أن مكروها أصاب ابنه أو أن قلبه يؤكد له انه حي يرزق وبمجرد أن أبلغه بشعوره وإحساسه بأن طه موجود وانه يشاهده كل ليلة في أحلامه يطلب منه الإسراع بفك أسره وحمله إلى مصر، أمن الزاوي على كلامه مؤكد أن قلب الأب لا يخطئ مثل قلب الأم تماما وأن ابنه ليس التائه الوحيد، فهناك العديد من الأباء الذين وصلوا إلى العراق للبحث عن أبنائهم وأخوة جاءوا للبحث عن أخوتهم وانه سيطلعه على سره، فهو قد جاء أيضا للبحث عن ابنه " فرج " والذي انقطعت رسائله منذ ما يقرب من عام ... " تهون المصائب عندما نرى مصائب الآخرين " اعتدل الشلقاني في جلسته ليسمع بكل حواسه ما يقوله الزاوي عن رحلته ومعاناته حتى استخرج جواز سفر ثم استعداده للمجيء إلى بغداد وانه وصل ليلة أمس فقط ولا يعرف أين سيبيت وانه يأمل في العثور على عمل لمدة شهر أو أكثر ليوفر كل مليم يكتسبه ويبدأ رحلة البحث عن " فرج " والتي يرى أنها قد تطول! خاصة بعدما رأى " أبو طه ".

عرض عليه الشلقاني الإقامة معه لبعض الوقت، فهو يقيم وحده في حجرة استأجرها له أولاد الحلال من دمياط ويدفعون له إيجارها الذي لا يزيد عن ثلاثين دينارا في الشهر، السماء " زغردت " للزاوي ... وافق على الفور وأخرج من جيبه الدنانير وأقسم بأغلظ الأيمانات انه لن يتحرك معه إلا بعد أن يقبل نصف الإيجار وأخذ بالفعل خمسة عشر دينارا وأعطاها للشلقاني وعين المخبر العراقي في حيرة من سر هذه الصفقة السريعة وهما بالانصراف حيث أخبره الزاوي أن حقيبة سفره أمانة في مقهى بنهاية الشارع وخرج المخبر وراءهما حظه في أقدامه ليراقب اثنين وليس واحدا!

حمل الزاوي الحقيبة وسار مع " أبو طه " وكأنه صديق حميم ... المصائب توحد الناس والبلاوي تقرب قلوبهم ومصيبتهما واحدة ... فقدان " الضنى " لم يسأل الزاوي أين تقع الحجرة ... فالموقع لا يهم وكل ما يحتاجه أن يستلقي بعض الوقت ... انتهى الشارع الكبير وانحرفا في حارة ضيقة مثل حواري القاهرة تماما ... الوجوه كلها مصرية ... والأغاني المنبعثة من أجهزة التسجيلات والراديوهات مصرية ... روائح الطعام مصرية ... الشباب مصري ... فهناك مشاجرة على " قمة الحارة أطرافها مصريون ... عرجا إلى منزل قديم سلالمه متآكلة مثل سلالم منزل علي الزاوي في روض الفرج ... الحجرة على السطح ... أمامها فسحة غير مسقوفة وبمجرد دخولهما الحجرة وغلق الباب لم يسمع الزاوي شيئا من ضجيج الحارة ؛ أو صخبها.

سرير واحد في منتصف الحجرة، وجلباب معلق بمسمار على الحائط ولون الحجرة غير واضح ... وشباك مغلق زجاجه مغطى بأوراق جرائد ... لا يهم ... سينام الزاوي على الأرض إذا أعاره أبو طه بطانية، سيفرشها على أرضية

الحجرة ... ينام على نصفها ويتغطى بالنصف الباقي، فالوضع لا يختلف كثيرا عن مصر وهو على علم مسبق بأنه لن ينزل في الهيلتون. ترك أبو طه له الحجرة واستأذنه للذهاب إلى بعض بلدياته في محل مجاور وأرشده للحمام ليغتسل أو يتوضأ ثم يأخذ قسطا من الراحة إلى أن يعود له ... يا كرم الله ... لم يحلم الزاوي بسهولة التوصل إلى ما وصل إليه، إلا انه لأول مرة في حياته سيبيت في حجرة واحدة مع شخص غريب، كل ما يعرفه عنه انه دمياطي جاء للبحث عن ابنه طه وعلم من حديثه انه يمتلك ورشة نجارة في دمياط وذكر له عنوانه هناك، بينما الزاوي لم يحك له شيئا عن حياته، كل ما قاله له انه من القاهرة وقد كذب عليه، مضيفا أن والده من أسيوط حتى لا تكشفه لغته ولكنه لم يخبره انه جاء من بلده إلى القاهرة هربا من الثأر وانه ظل بالقاهرة ما يقرب من ثلاثين عاما وانه قد عقد العزم بعد أن وطأت قدماه بغداد أن يعود إلى مسقط رأسه مهما كلفه الأمر حتى وإن طارت رأسه نفسها.

تركه أبو طه وما زالت وق أقدامه تدق على السلم المتآكل ... لم يغتسل ولم يتوضأ وألقى بنفسه بملابسه على السرير أملا في أن تغفل عيناه ... النوم لا يعرف طريقه إلا لأصحاب القلوب الخالية وقلب الزاوي مليء بكل عصارات المرارة والذكريات ... كيف ينام ودخوله الحجرة يذكره بالحجرة التي استأجرها له ابن خاله صفوت قاسم عمر بعد أن قفزا من القطار عند كوبري إمبابة، الحجرة قريبة الشبه بحجرته الأولى والتي لم يغادرها حتى الآن إلا انه توسع بها وفيها بعد الاتفاق مع صاحبة المنزل، لقد دفع له ابن خاله إيجار سنة كاملة بعدما اتفق مع صاحبة المنزل وخفق الإيجار من جنيهين اثنين في الشهر إلى مائة وثمانية قرشا وبمجرد موافقة صاحبة المنزل أخرج من جيبه إيجار سنة كاملة حتى لا تخل بوعدها ... وهو ما فعله الزاوي مع أبو طه بمجرد أن عرض عليه الإقامة معه ... دفع نصف الإيجار في التو واللحظة. تركه الشلقاني أبو طه مثلما تركه ابن خاله صفوت بمجرد أن تفحصا الحجرة، قدمه صفوت لصاحبة المنزل على انه بلدياته من أسيوط وليس قريبه. وكانت المرأة تعرف صفوت فقد سكن في نفس الحارة عندما كان يدرس في القاهرة وأقسمت بأنها قبلت الساكن الجديد لأنه من طرف صفوت الذي عاش معهم في الحارة لمدة أربع أو خمس سنوات لم يسمع صوته أحد ... شكرها صفوت ... الأستاذ صفوت ودفعت بالفلوس في صدرها وانصرفت وتركه صفوت بعدها مباشرة ... استأذن ربع ساعة لا أكثر وعاد بعد ثلاث ساعات قضاها علي الزاوي في رعب مقيت.

عاد صفوت ومعه مستلزمات علي الزاوي والتي سيحتاجها: جالون جاز ولمبة نمرة خمسة وأكياس شاي وسكر وابور جاز جديد " بريموس " وبطانيتان وعلب سجائر ومعسل ... وضعهما جميعا في منتصف الحجرة العارية ... الشكل متقارب ... حجرة فوق السطوح وحيدة ... وبقية السطح غير مسقوط وحمام صغير في نهاية السطح، وظل صفوت معه بعد ذلك يومين ... يخرج في اليوم أكثر من مرة ويعود بأشياء كثيرة ضرورية لفترة " شرنقة " علي الزاوي المستقبلية وطلب منه ألا يغادر الحجرة إلا مرة واحدة على الأكثر

في الأسبوع ليشتري احتياجاته من بقال قريب وألا يتحدث مع احد وألا يرفع الشال الذي على وجهه ورقبته، فقد أخبر صاحبة المنزل قبل مغادرتها أن الزاوي مصاب بحرق شديد في رقبته ولا يرغب في أن يشاهده احد، وصدقت المرأة رواية الأستاذ ... وانصرفت، هذه الكذبة الصغيرة ستعمل هي على ترويجها إذا سألها احد عن الساكن الجديد الذي يخفي وجهه وطلب منه ألا يحدثها على الإطلاق ليس أكثر من السلام عندما يراها فهي تقيم في حجرة بالدور السفلي وبقية الحجرات مؤجرة لبحاروة وأسرهم.

تركه صفوت منذ ثلاثين عاما بعدما فعل اللازم وأكثر وأعطاه أربعين جنيها في ذلك الحين وأخبره بأن هناك مبلغا سيأتيه كل شهر وكانت زوجته صابرة قد أعطته كل النقوط الخاص بالمولود نصر ... ولده الأكبر ... ستة وعشرون جنيها ونصف " برايز وشلنات، ورقة واحدة بخمسة جنيهات " أعطته المبلغ " مصرورا " في منديل. وكما تركه صفوت تركه الشلقاني إلا انه لم يقدم له أي نصيحة وطلب منه أن يستريح بعض الوقت لحين عودته ... رجل كريم ... والكرم لابد أن يقابل بالكرم ويجب عليه ألا يخفي عنه شيئا، إلا انه لا يستطيع ولا يعلم النتائج إذا أخبره مثلا انه هارب من ثأر وانه مطلوب رغم انه بريء مما حدث ... كيف له أن ينام أو يستريح؟. قام وأغلق الباب وصحا فجأة على طرق شديد ... لقد نام بالإكراه ... نام من التعب والفكر ... وها هو أبو طه قد عاد بعد أكثر من ست ساعات قضاها مع بلدياته في محل مجاور، أخبرهم انه تقابل مع شخص ظروفه مثل ظروفه وقد جاء به ليقيم معه في الحجرة وأنهما سيبحثان سويا عن ولديهما ... طه وفرج!

" علق " أبو طه على الشاي وأسرع علي الزاوي لاستخراج الشاي والسكر من حقيبته وأخرج الجوزة و " قوالح " الذرة واستأذن أبو طه في إعداد كرسي معسل، فصواريخ النار تضرب في رأسه منذ وصوله إلى بغداد، لم يمانع أبو طه وأعلن استعداده لمشاركته في المعسل، فهو أيضا منذ مجيئه إلى بغداد لم يمس شفاه " شيشة " أو " جوزة " ... تجاذبا أطراف الحديث ... أبو طه ليس له كلام إلا عن ابنه طه ... ولده الوحيد على ابنتين والذي تمرد على الصنعة ورفض الاستمرار فيها، مطالبا إياه أن يتركه يخرج على " وش " الدنيا بعدما أصاب مدينتهم دمياط عدوى السفر إلى الخارج.

السبب في سفر طه كما يقول الشلقاني أمه ... وهي التي تركته بلا زواج حتى بلغ العشرين من عمره ورفضت كل الزيجات التي اقترحها أبو طه لأنها من ناحية عائلته هو، وعندما طلب منها البحث عن عروس لابنها من عائلتها، تعللت بعدم وجود عروس مناسبة له من بين أهلها، تركته بلا زواج ففر منها ومنهم ... لم ينقصه شيء، فالمنزل من ثلاثة أدوار ... الشقة الواحدة على مساحة دور كامل مائة وأربعين مترا والدور الأول: ورشة كاملة متكاملة وقد أصبح طه " كرسجي " نمرة واحد نجار كراسي سفرة ... يحسده بقية الشباب، فقد وفر له أبوه كل شيء ولم يتركه يعمل لدى الغير ... وفر له كل شيء وفشلت أمه – سبب البلاوي – في إيجاد عروس مناسبة له!

دخان المعسل به رائحة مصر وترابها وعلي الزاوي يستمع لأبو طه بكل حواسه، فهو يتكلم هذه المرة دون بكاء ويتحدث بإسهاب ويدخل في تفاصيل التفاصيل دون حرج وكأن ليس في حياته أسرار ... جلسة واحدة ... كشف فيها لعلي الزاوي كل حياته التي اقتربت من السين وكيف بدأ صبيا في الورش وقد أدخر المليم على المليم والقرش على القرش وكيف ساعدته والدته مبكرا في البحث عن زوجة وكيف تزوج وكم من المهر دفع وكيف اشترى الأرض القريبة من السوق القديم في دمياط في شارع فكري زاهر وكيف بنى الورشة أولاً ثم طابقا وراء الآخر ليصبح منزله مكونا من ثلاثة طوابق ... كتب بالطوب أعلاه " الله اكبر "!

الشاي وبخاره ... والمعسل ودخانه ملأ الحجرة وملأ الفكر رأس علي الزاوي، فلابد من مجاراة أبو طه والحديث معه في بعض شئون ليشعر معه بالأمان، فالصمت يثير الشكوك ولكنه إذا تكلم قد يتفوه بكلمة أو يفتح بئر أسراره التي لا يرغب في أن يطلع عليها احد. يكفي انه ضعف أمام بكاء أبو طه المستمر وأخبره بسر مجيئه إلى العراق، ولو تمادى في الحديث قد " يطرطش " ببعض أسراره ولا يستطيع التحكم في " دفة " الكلام ... الأفضل له أن يسأل ويستمع لإجابات أبو طه فأسراره احتفظ بها في القاهرة لما يقرب أو يزيد عن ثلاثين عاما وفي أول يوم ببغداد ومع أول شخص تعاطف معه ... حكى له عن ابنه فرج ووقع بلسانه!

" أدوار الشاي تتواصل وحديث أبو طه سهل وكلامه جميل، يبدو انه محترف تدخين " جوزة " فهي تختلف في التعامل معها عن " الشيشة " حكي له أبو طه أن بلدياته من دمياط تكفلوا بإقامته هنا ... والإقامة مفتوحة إلى أن يعثر على طه، إلا أنه يدون كل مليم صرف وكل دينار أخذه وأخرج من جيبه " نوتة " صغيرة قلب صفحاتها أمام وجه الزاوي، وسيدفع كل فلس أخذه بمجرد عودته إلى مصر، فهو لا يستطيع أن يبحث عن عمل، فالعمل قد يعوقه عن مهمته، كما أن تقدم عمره يمنعه بالإضافة انه صاحب ورشة كبيرة في دمياط ... والناس في مصر لا ترحم وعدو " كارك " عدوك ... قد يشنعون عليه ... كما أن من يقدمون له المساعدة يعلمون تمام العلم أن أموالهم ستصلهم أو ستصل ذويهم في دمياط، خاصة وأن هناك صعوبات في تحويل الأموال إلى مصر ولديهم هنا من الأموال ما يزيد عن احتياجاتهم!

أشاد أبو طه بالحاج سعيد النظيف عمدة الدمايطة وأقدم المصريين ببغداد والذي جاءها من لبنان عام 1976، بعدما اشتدت هناك حرب بين المسلمين والمسيحيين (الحرب الأهلية) وافتتح معمل خياطة كبير ... ورشة بها ما لا يقل عن عشرين ماكينة ويعمل عنده الكثير من المصريين وعلاقاته طيبة مع الجميع، وحتى عندما " انقلب " العراقيون على المصريين بعد انتهاء الحرب الإيرانية كان الحاج سعيد النظيف رسول خير بين السلطات العراقية والمصريين وقد اجتمع صدام مرة مع المصريين ... منهم أساتذة في الجامعة وأطباء ... وكان سعيد النظيف من بينهم وصورة الرئيس صدام وهو يصافحه

بعد انتهاء الاجتماع معلقة في مدخل معمل الخياطة ... لم يتوقف أبو طه عن الحديث وكأنه ماسورة انفجرت وكلما يقترب أبو طه من التوقف عن الكلام يفتحه الزاوي بكلمة واحدة ... " وبعدين! ".

سأله الزاوي عن الأماكن التي بحث فيها عن ابنه، فهذه الأماكن قد يحتاجها هو من الصباح الباكر عندما يبدأ رحلة البحث عن فرج، أجابه بالتفاصيل والعناوين وأسماء من قابلهم من المسئولين العراقيين والمسئولين المصريين في السفارة وأسماء المقاهي التي كان يوزع عليها طه المعسل الذي كان يستورده من مصر وأعطى " الجوزة " لعلي الزاوي في إشارة إلى اكتفائه من الشرب. فالمعسل فيما يبدو سبب " البلوى " وأخبره عن اسم شركاء ابنه من العراقيين وانه ثاني يوم وصل إلى بغداد تقدم ببلاغ عن اختفاء ابنه، إلا أن أغلب المصريين خذلوه ... ولم يدل احد منهم بشهادته وأعاد على مسامعه القصة التي سمعها على الزاوي من جرسون المقهى الأولى حول السيارة التي توقفت أمام مقهى طه ونزل منها شخص نادى عليه بينما كان يجلس شخصان في المقعد الخلفي وركب معهم طه ولم يظهر بعدها ... مؤكدا أنهم لم يخطفوا كما أشيع، بل يعرفونه معرفة جيدة بدليل انه ذهب معهم دون مقاومة.

المعسل قد يكون سبب اختفاء طه وماذا عن المصريين الآخرين الذين اختفوا في العراق وماذا عن القتلى الذين يرسلون في توابيت إلى مصر يسأله أبو طه ويجيب نفسه ويستمع علي الزاوي ... الناس هنا تشكو من سوء المعاملة والبعض يؤكد انه لا صحة على الإطلاق لما يقال، هناك من يقول إن الغرض " تطفيش " المصريين من العراق وآخرون يقسمون بأغلظ الإيمانات أنهم سمعوا صدام شخصيا وظهر على التليفزيون أكثر من مرة يؤكد أن المصريين في ضيافته وأنهم ساعدوا العراق في حربه ضد إيران ... ساعدوا الأمة العربية كلها وساعدوا أنفسهم والآن يساعدون في بناء العراق ... " الحواديت " كثيرة لم يعد أبو طه يصدقها ولا يستطيع أن يكذب عينيه، فقد رأى بنفسه كيف تعاملت الشرطة مع مظاهرة من المصريين ... بعد وصوله بيومين أو ثلاث ... خرج المصريون يحتفلون بفوز مصر على الجزائر في مباراة لكرة القدم وكيف دخلت سيارة كبيرة في المظاهرة، أصابت من أصابت وقتلت من قتلت وجاءت قوات الشرطة تطلق الرصاص على المتظاهرين فوق جسر الأحرار.

لقد ذهب أبو طه بنفسه صبيحة اليوم التالي إلى المستشفى ليرى المصريين الجرحى، كان يأمل أن يعثر على طه بينهم رغم أن ابنه ليس له في " الكورة " ولا في السياسة ... ولا في المظاهرات، قالوا له أن ابنه ليس بينهم وهناك شاهد يوسف شرف الدين ... المستشار يوسف ... وعرف انه مسئول عن العمال المصريين في العراق ... وأخبره بنفسه أن ابنه ليس من بين المصابين وان هناك قتيلا واحدا من كفر الشيخ ... اسمه محمد محمد عبد النبي المسيري ولم ينصرف أبو طه إلا بعد أن رأى بعينيه وسألهم عن

ابنه ودخل لأول مرة في حياته مشرحة ... وكشفوا له عن وجه القتيل ولم يكن طه ابنه!

سعيد النظيف له رأي أخرى لا يقوله للغرباء ... يستمر أبو طه في حديثه محاولا إيقاظ علي الزاوي الذي غلبه النعاس، إلا انه ينفي رغبته في النوم، فحديث أبو طه سيكون " زاده وزواده " في الرحلة، ويريد سماع كل شيء، تسمر الزاوي واتسعت عيناه تلقائيا عندما أبلغه أبو طه انه تحدث مع الحاج سعيد النظيف عنه وأبلغه عن عثوره على شخص طيب من أسيوط، جاء إلى بغداد ليبحث عن ابنه وانه سيقيم معه في الحجرة إلى أن يدبر أمره، أقلقته كلمة " أسيوط تلك فقد قال له إن أباه من أسيوط وليس هو، فهو من القاهرة ... وها هو السر انتقل إلى شخص ثالث رغما عنه بعدما قدمه هو برغبته إلى طرف ثان ... السر إذا خرج من صدر صاحبه وعرف طريقه إلى لسانه ... تناقلته كل الألسنة ولم يعد سرا، طمأنه أبو طه بعدما رأى القلق يقفز من بين خطوط جبهته موضحا له أن الحاج سعيد النظيف يحتفظ بأسرار كل المصريين ويرغب في الجلوس معه ومن الممكن أن يذهبا إليه عصر اليوم التالي في ورشة الخياطة!

مفاجأة ... زيارة الحاج سعيد هذه لا يرغبها ولا يعرف كيف يتعامل معها، فهو لم يزر أحدا منذ أن قفز من القطار وأقام بروض الفرج، كانت فسحته الوحيدة النظر من فوق سطح منزله إلى الحارة المتعرجة والتي لها أكثر من مدخل ومخرج، كانت متعته وسلوته، أن يراقب الناس من هناك لمدة تقترب من ثلاث سنوات قضاها وحيدا في حجرته، قبل أن يرسل إليه أهله زوجته " صابرة " وابنه نصر ... نصر الذي تركه وعمره أسبوع وعاد إليه يسير بجانب أمه ... طوال هذه الفترة لم يتحدث مع احد ولم يزره احد ... سوى جاره " ياقوت " الذي راقبه طويلا قبل أن يسمح لنفسه بمخاطبته أو الاقتراب منه، وها هو الحاج سعيد النظيف يطلب رؤيته والحديث معه. وهو لا يعرف عنه شيئا على الإطلاق سوى ما قاله بلدياته بأنه عمدة الدمايطة في بغداد ... ورطة ليس بعدها ورطة، فتهربه من مقابلته أو زيارته قد تثير شكوك أبو طه وقد تغضب الحاج سعيد صاحب السطوة والذي قيل له انه يعلق صورة كبيرة في ورشته وهو يصافح الرئيس صدام حسين!

وإذا ذهب إليه وجلس مستمعا فقط سيصبح علامة استفهما وإذا شارك في الحديث فالحديث " هات وخد " والخوف من " هات " ... خاصة وأن لسانه " فلت " منه منذ مقابلة أبو طه وقراره المتسرع في الإقامة معه ... يمكنه طلب تأجيل الزيارة أو المقابلة لبعض الوقت، والحجة جاهزة انه سيبدأ من الصباح الباكر البحث عن ابنه " فرج " وقد يسافر إلى البلدة التي انتقل للعيش فيها مع زوجته العراقية، في آخر رسالة ذكر أنها قرية مثل قرى المصريين تبعد حوالي ثلاثين كيلو مترا شمال العاصمة ... القربة بين " بغداد " و" بعقوبة " أسمها مدون في ورقة احتفظ بها بمفردها في جيبه الخلفي.

طلب من أبو طه تأجيل زيارة الحاج سعيد لبعض الوقت على أن يبدأ سويا البحث عن " فرج " و " طه " من موقف الأتوبيس أو المقهى وهي النقطة

الأولى التي نزل فيها، فهي ملتقى لكافة السيارات القادمة من جميع أنحاء العراق ومعه العديد من صور " فرج " سيوزعها على سائقي السيارات ويطلب منهم في حالة عثورهم عليه إبلاغه بأن والده في بغداد جاء يبحث عنه ويستطيع أبو طه أن يفعل نفس الشيء ولكنه لا يعرف اسم المكان أو اسم المقهى أو اسم الحي الذي يقيم فيه، أو كيفية الاتصال به في حالة العثور على فرج، طمأنه أبو طه وأخبره بالمعلومات التي يريدها.

(5)

موقف الأتوبيس في منطقة " علاوى الحلة " والمقهى الذي قابله فيه اسمه " شمس الكرخ " والمنطقة التي يعيشان فيها معروفة على مستوى العراق كله، فهي " المربعة " المحصورة بين شارع " الرشيد " وشارع " الجمهورية " والحارة اسمها محلة السلطان علي ومن يعثر على " فرج " أو " طه " عليه الاتصال برقم تليفون الحاج سعيد ودونه له أبو طه في ورقة قديمة، لقد انشغل الشلقاني عن فكرة زيارة الحاج سعيد بخطة البحث عن ولده وقرأ الفاتحة سويا ... نام أبو " طه " على سريره وسحب الزاوي بطانيتين، افترش أحداهما وتغطى بالأخرى، إلا أن النوم طار من عينيه بعد أن سيطرت عليه فكرة لقاء الحاج سعيد وإمكانية التشكك في مدى صدقه رواياته.

الأمر محسوم ... لن يقابل هذا الحاج إلا بعد أن يجمع عنه ما يكفيه من معلومات وقد يكون مثل الحاج ياقوت " بتاع " روض الفرج ... ليس بحاج إلا أن الناس اعتادت أن تناديه وتخاطبه بهذا اللقب، فهو أول من اكتشف في الحارة أن الحاج ياقوت " سكري " بتاع " قزازة " يتخفى بسلوكه بحديث حلو عن قال الله ... وقال الرسول ويختتم كلامه بخبطة بسيطة على صدره أو قلبه أو جيبه، بأن أهم شيء " تقوى الله " إلا أن زجاجة خمر صغيرة كانت لا تفارق جيب الجاكت الذي يرتديه، لقد تيسر له معرفة ذلك كله بعد مراقبة مستمرة لمدة تقترب من الثلاث سنوات شاهد فيها الحاج ياقوت يتجرع من الزجاجة الصغيرة جرعات وهو يجلس مثله على سطح منزله المجاور ... ولكن كيف يراقب الحاج سعيد؟ سيجمع عنه ما يستطيع جمعه من حواديت وروايات، فالمصريون هنا لسانهم " مفلوت " بفضل الغربة المحتاجة دائما للونسة، والألفة ... والكلام والحديث أهم جسور التقارب.

أطل الصباح ... أجمل من الأمس،، وتحت رذاذ المطر ... خرج الزاوي وأبو طه ... تناولا الفطور في مقهى ليس بعيدا عن المنزل ... فول وطعمية وبصل أخضر ... وعلم أن الإفطار في العراق يسمى " رويق " معنى ليس بعيدا عما يستخدم في مصر، فالبعض يطلق على كوب شاي الصباح عندنا " تغيير ريق " وأصر الزاوي على دفع الحساب إفطار الاثنين نصف دينار فقط، خمسمائة فلس، الشاي بعشرة فلوس ... هناك فرق بين أسعار هذه المقهى وأول مقهى نزل عليها، يبدو أن الجرسون الأول وهو مصري مثله قد عرف انه قادم جديد وبالتالي غالي في الأسعار ... ليس مهما ... ويجب أن يدقق في كل

فلس يدفعه من الآن فصاعدا ... فالمصري لا يستغل إلا مصريا مثله ... هكذا قالوا له قبل سفره ... إلا انه لم يعط " خوانه " والتعليم " مش " بالمجان.

عبر الجسر سويا ... الجسر الفاصل بين " الرصافة " و " الكرخ " ... وصلا منطقة " علاوى الحلة " ... المطر مستمر في تساقطه ... رذاذ خفيف منعش بارد ... شاهد أبو طه بعض " بلدياته " حاول أن يسرع الخطى إليهم ... ذكره الزاوي بأن لديهم عملا لابد من إنجازه والحديث مع البلديات لن يأتي بفرج أو طه، إلا انه أخبره بأنه سيلحق به على المقهى.

أمر " البحاروة " غريب، فهم يعشقون الحديث وقوفا لا جلوسا ... لا كوب شاي ولا كرسي دخان ولديهم قدرة على توليد الكلام يبدأ بالسلام وينتهي بحكاية لا نهاية لها، لم يضع الزاوي وقته وأسرع إلى المقهى كأنه يبدأ أول يوم عمل ... جماعات من الزبائن تغادر المقهى بعد تناول إفطارها وأشعة الشمس تلون حبات المطر بلون ذهبي ... المطر خير ... ينتظره الناس والصباح ندى يبشر بالخيرات ومن هذا المكان يشعر الزاوي انه سيعثر على خيط يوصله إلى ابنه فرج ... المكان ملتقى لجميع البشر ... مصريون وعراقيون قدموا من أماكن بعيدة ... العسكريون منهم لا يتحدثون مع احد ويتناولون إفطارهم على عجل ويغادرون ولا يلتفتون لأحد ... يحترمون البدلة العسكرية ... دخل المقهى وألقى بالتحية على الجرسون ... فهو نفسه جرسون الأمس واستأذنه في وضع طاولة وكرسي على مقربة من باب المقهى ليرى الشارع والمارة.

المكان واسع والمنازل كثيرة على جانبيه ... لافتات عن فنادق كثيرة والمطاعم والمقاهي تلفت النظر ... لم ير الزاوي بين الخمارة والخمارة ... خمارة أخرى كما قيل له في القاهرة والنسوة لسن كثرة ... أغلبهن متشحات بالسواد مثل نساء بلده ... يحملن خضروات وفاكهة، فالبلد فيما يبدو تبدأ نهارها مبكرا ... وضع الجرسون الشاي أمامه وسأله إذا كان وجد عملا أو مكانا للإقامة ... وسأله عن اسمه، كل الناس هنا حجاج وخاصة إذا كانوا في عمر الزاوي ... الحاج علي ... اختار لنفسه لقب الحاج، فهو لا يقل عنهم ... العمل في المقهى خفيف مما شجع الجرسون أن يقف بجواره ليسأله المزيد من الأسئلة " الكلام هات ... وخد " أبلغه انه سيبدأ البحث عن العمل منذ اليوم ... ولا يهم نوعية العمل إذا كان في مطعم أو مقهى ... أعاد الجرسوم على مسامعه صعوبة الحصول عن عمل في هذه المنطقة وعليه البحث في مكان آخر، فأغلب العاملين هنا مستمرون منذ سنوات، لم يبال بما سمعه واستمر في حديثه على انه عثر على مكان يقيم فيه مع الحاج أبو طه قريب الحاج سعيد النظيف " بتاع " المربعة.

اسم الحاج سعيد يرن مثل الطبل في أذان المصريين، ادعى الجرسون انه يعرفه " عز " المعرفة وأنه بجانب امتلاكه لورشة الخياطة الكبيرة يشارك في العديد من العراقيين والمصريين في مشروعات كثيرة ... لا يهم لديه إذا كان المشروع مطعما أو مقهى ... المهم الربح ... ولديه من الأموال الكثير فهو

مقيم في بغداد منذ ما يزيد عن خمسة عشر عاما والسلطات العراقية والشرطة كثيرا ما تلجأ إليه في حالات مشاكل المصريين وأبلغه أن الحاج سعيد قد قابل الرئيس صدام واستمع منه إلى مشاكل المصريين ووعده بحلها جميعها وقال له إن المصري في العارق على العين والرأس ... لا احد يستطيع المساس به، فهو يعيش مع العراقيين على " الحلوة والمرة " إلا انه أكثر ميلا إلى بلدياته الدمايطة ولا يثق في غيرهم ... لأن ما لا يستطيع تسوية أمره معه هنا ... يستطيع تسوية أمره في دمياط، فهو من عائلة كبيرة تصدر كل يوم مئات من الدمايطة لسوق العمل بالعراق.

كل ما سمعه عن سعيد النظيف لم يشبعه ... فالحديث عادي، ليس به ما يثير أو ما يكشف شخصيته ... كلام من الممكن أن يقال على أي شخص أقام منذ فترة في بلد ما وأنعم الله عليه بالرزق والخير، كيف يتعامل مع الغرباء؟ هذا ما يهمه، سأله إذا كان من الممكن أن يجد فرصة عمل لدى الحاج سعيد النظيف ... أغلق الجرسوم أمامه كل الأبواب، فالنظيف يدير مؤسسة دمياط المستقلة المتحدة وبما انه لا يتمتع بجنسية دمياط، فدخوله إليها أصعب من دخوله بغداد، إلا أن أبو طه من الممكن أن يتوسط لديه ويجد له عملا عنده. أو على الأقل يساعده في إيجاد عمل لدى معارفه أو أقربائه، بل من الممكن أن يجد له عملا في الحكومة ... الحكومة العراقية ... ويحصل على سكن أو بدل سكن ... ويصبح له أجازات سنوية ومن الممكن أن يستقدم زوجته وأبناءه من مصر بتذاكر سفر طيران حكومية. الحاج سعيد لديه كل المفاتيح ... إلا أن الدخول عليه والتعامل معه يحتاج إلى فطنة وذكاء!

وصل أبو طه إلى المقهى وجلس على مقعد بجوار الزاوي أحضره له الجرسون بمجرد اقترابه من المقهى. وقبل أن يطلب كوب الشاي اتخذ موقف الاستعداد للحديث والحكي والكلام، إلا أن الزاوي بأدب شديد أفهمه أن الحديث لا معنى له وعليه أن يحكي له المفيد ... ويذكر له الأتوبيسات المتجهة إلى بحري العراق والأتوبيسات القادمة من قبلي العراق وأن يسأل عن مواعيد قدومها ومواعيد خروجها ... كما يذكر له بعض أسماء أهم المدن وترتيبها والمراكز ... مركزا ... مركزا ليكثفا عمليات البحث عن فرج وطه! كما عليه أن يخبره بأماكن التجمعات الكبيرة في بغداد التي يتوافد عليها القادمون من جميع أنحاء العراق، فهو لن يتحرك خارج العاصمة إلا بعد المرور على هذه التجمعات يسأل القادمين إليها إذا كان احد منهم عرف أو تعامل مع فرج على محمد يوسف وطه الشلقاني.

كشف له أبو طه عن رحلته التي استمرت ما يقرب من شهرين، ذهب فيها إلى محافظات الجنوب ومدنها ... الكوفة ... النجف ... كربلاء ... البصرة، وحتى الفاو ... وقطع مسافات طويلة في الشمال إلى الموصل وكركوك وأربيل والسليمانية وكان الحاج سعيد يرسله إلى معارفه في هذه البلدان، فهو صاحب تجارة واسعة ... يتعامل مع تجار في جميع أنحاء العراق وكان البعض يستضيفه بمجرد إبلاغهم انه من طرف الحاج ويكرمونه ولولا غياب ابنه وبحثه المستمر عنه و " حرقان " قلبه لأقام في هذه البلد طول حياته،

فالناس هنا أصيلة رغم خسة بعضهم ... وكريمة رغم ضيق ذات يد البعض منهم من المصريين وهذا شأن الدنيا ... فيها الصالح والطالح ... أخبره عن شخص استضافه عنده قضى الليل في داره ... وأكرمه وفي الصباح أبلغ الشرطة عنه وتوجسه منه وألقى القبض عليه ليقضي ليلته الثانية في تلك البلدة في مركز الشرطة وعندما علموا بمأساته وبعد الاتصال بالحاج سعيد في بغداد ... أفرجوا عنه ... واعتذروا له ... المشكلة التي يؤكدها أبو طه أن الشرطة ترتكب مصيبة وتسير هنا وراء الوشايات ... ثم تعتذر ببساطة وتلح في قبول الاعتذار.

يدخل أبو طه من حكاية ليخرج إلى حكاية أخرى ودخل المقهى بعض بلدياته واستأذن للخروج معهم تاركا الزاوي لوحده وهو ما أثار غضب الزاوي ... فقد خرجا معا لمهمة ... وقرءا الفاتحة بالأمس إلا أن معارف أبو طه ستفسد عليه رحلته، وقد تشغله أو تصرفه عن مهمته لكنه يجب عليه أن يعتمد على الله ويكتفي بوجود أبو طه بجانبه ... " ونسه " ... لا أكثر، فالرجل فيما يبدو أصابه " لطف " ... يتحدث بالساعات ويصمت بالساعات ... ولا يبكي الآن عند مشاهدة معارفه وبلدياته، هم بالانصراف ليبدأ مهمته من موقف أتوبيسات " علاوى الحلة " ... وإذا بالعراقي الذي شاهده بالأمس يتوقفه ويسأله إذا كان عثر على عمل أو لا " ويدس " في يده ورقه بها اسم وعنوان ويقول له إن هذا الرجل ينتظره في حي الوزيرية ببغداد ... الساعة الرابعة عصرا وسوف يوفر له وظيفة.

ها هو ... ما كان يبحث عنه عثر عليه وما حذره منه المصريون قبل سفره قد جاء إليه، فالرجل كان يراقب أبو طه والجرسون حذره من الجلوس مع أبو طه لأن الشرطة تراقبه والرجل فيما يبدو مباحث ولكن لا مشكلة من التعامل معه إذا كان ذلك سيؤدي في النهاية إلى العثور على " فرج ". لقد عقد العزم على عدم العودة إلى مصر إلا بعد العثور عليه ... وقرر في نفسه انه بمجرد العودة إلى مصر وبيده فرج ... سيذهب إلى الصعيد بعد أن يخبر أهله هناك بأنه قادم ليقدم وأمه ما زالت في القرية لم تعد تستطيع مبارحتها بسبب تقدمها في السن ... سيقدم كفنه ... وحتى وإن قتلوه بعد ذلك سيموت في مصر ... ويدفن في ترابها فالعمر واحد والرب واحد ... لم يعد يحتمل، أبلغه العراقي بلغة حازمة حاسمة بأن مبنى قريب من إشارة المرور وإذا استقل سيارة أجرة من وسط بغداد إلى العنوان عليه ألا يدفع أكثر من دينارين اثنين للسائق ... واختفى في لمح البصر!

اختفى الرجل العراقي وذاب الزاوي بين البشر ... عيناه تمسحان المكان ويردد بصوت خفيض لنفسه اسم المكان " علاوى الحلة " ... المنازل قديمة ... بسيطة ... دور أو دوران ... أعلى بناية لا تزيد على ثلاثة أدوار ... الناس لسانها عربي فصيح وملابسها أقرب لملابس أهل الصعيد، جلباب واسع ... أغلب المارة يرتدون جلالبيب من الصوف وعلى رؤوسهم " تلفيحة " مزركشة بلونين لا ثالث لهما ... إما زخارف حمراء أو سوداء. قبل أن يدخل موقف الأتوبيس ... سيسأل أصحاب المحلات والمقاهي على الجانبين إذا كانت

لديهم فرصة عمل ... فالوقت ضيق والعمر " قزح ". محلات عطارة ... وأقمشة وأواني بلاستيك، مطاعم ومقاه على الجانبين ... والحركة دائرة ... رجال كبار في السن يعملون حمالين ... يجرون عربات خشبية ... يسحبونها بحبل معلق في أكتافهم، تاكسيات وسيارات ملاكي وأتوبيسات ... أنها مصر وليس بغداد ... أبو طه لديه حق في قوله انه يتمنى أن يعيش حياته في هذه البلد!

يقف على باب المحل حرجا ويلقي بالتحية فترد إليه بأحسن منها ... ويسأل إذا كان لديهم فرصة عمل له ... يتفحصه المستقبل قبل أن يجيبه ويدعو له بأدب أن يوفقه الله وأن يرزقه الله ... أغلب أصحاب المحلات عراقيون كبار السن باستثناء المطاعم ومحلات العصير والمقاهي التي يديرها مصريون ... وقف أما متجر عطارة وسأل سؤاله المعتاد ليخرج إليه صاحبه ... كبير في السن سمعه " ثقيل " بعض الشيء ... أدرك الزاوي ذلك بسرعة ... رفع صوته يسأله عن فرصة عمل، أمسك بيده وأجلسه على " دكة " خشبية على الرصيف بجوار المحل ... سأله عن موطنه وإذا كان عمل في العراق من قبل و " صب " له كوبا من الشاي من " ترمس " كبير كان يضعه تحت الدكة ... اخذ يتفحص الزاوي، يبدو أن تقدم عمر الزاوي لا يشجع على تشغيله، فالعمل يحتاج لشباب، إلا أن صاحب المحل نطق بالفرج ... نعم ... لك عندي عمل في المخزن الملحق بالمحل ابتداء من أول الشهر!

تعارفا ... ذكر له اسمه " إبراهيم الحلي " الأصل من " بعقوبة " بحري بغداد ... شمال بغداد، اسم البلدة ... ذكرها ابنه فرج من قبل في رسائله، أخبره أن لديه عامل مصري سينزل أجازة أول الشهر، الأجازة حوالي ثلاثة أسابيع، إلا أن المصري اعتاد أن يغيب ثلاثة شهور ... ثم يأتي إليه بحجج وروايات ... مرض أمه ... إصابة أخيه في حادث سيارة ... مشاكل في الجيرة ... مصاعبه مع العمال لأنه يبني منزلا في " المنصورة " وقصص هذا العامل لا تنتهي، إلا انه يعمل معه منذ سبع سنوات ... أمين وصادق في كل شيء طالما بقى في العراق، وعندما ينزل مصر يدمن الكذب ويطيل أجازته بشتى الطرق ويتصل تليفونيا ببغداد ليبلغه بتأخره، هو لن يستغني عن ولد المنصورة هذا ولكن وجود شخص آخر مصري بجواره وصعيدي قد يصلح حاله ... العمل أول الشهر ... مائة وسبعون دينار قد ترتفع إلى مائتين ... وعده الزاوي بالمرور عليه كل ثلاثة أو أربع أيام إلى أن يحين موعد أجازة الأخ المصري ...

" يا دليل التائه ... يا عدوي "

في موقف الأتوبيس العديد من المصريين سأل بعضهم عن الأحوال والظروف وتردد في إخراج صور ابنه التي وضعها في جيبه قبل خروجه من المنزل، فهم قد لا يهتمون بمشكلته ولكنه حاول أن يستفسر منهم في حالة سفره مثلا إلى البصرة للبحث عن شخص ما، هل سيوفق أم لا؟. أخبره أحدهم أن المصريين يعرفون بعضهم البعض وأن هناك تجمعات للصعايدة وللبحراوية في كل مدينة عراقية ... حتى أهالي القاهرة لهم أصول من بحري أو من الصعيد ينضمون إلى جماعتهم وأن السؤال على شخص ما والعثور

عليه ليس بالصعب أو المستحيل، إن لم يكن قد مات أو اختطف أو تم اعتقاله. إذا كان قد مات " موتة ربنا " وتم دفنه في العراق سيخبره الناس وسيدلونه حتى على مكان قبره وإذا كان اختطف أو اعتقل، فلا احد سينطق بكلمة وحتى الذين يعرفونه أو يعيشون معه سينكرون معرفتهم به ... وهذه هي الحقيقة الغائبة في العراق ... الناس جاءت إلى هنا لتأكل " عيش " والدخول في هذه المتاهات غير مأمون العواقب وإذا كان لا يريد السفر بنفسه فعليه إعطاء اسم الذي يبحث عنه أو صورته لسائقي السيارات التي تعمل على الخطوط في تلك البلدان وعليه انتظار عودتهم، إذا ابتعدوا عنه عند سؤالهم للمرة الثانية، فهذا يعني أن الشخص أصبح في " خبر كان " وإذا أخبره أن البحث ما زال جاريا، فهذا يعني انه حي يرزق لم يمسه سوء ولم تنله أيدي الشرطة العراقية ولكنه قد يكون انتقل من بلد إلى آخر سعيا وراء الرزق.

كلام معقول ... سيبدأ بثلاث صور أو أربع يوزعها على سائقي الأتوبيسات المتجهة إلى مدن ومحافظات مختلفة ... ويعود إليهم بعد عدة أيام ليرى نتيجة البحث ... إذا أشاحوا عنه وانصرفوا دون حديث، فالمكروه يكون قد وقع ... وإذا طلبوا مهلة فالبحث جار ولن يكلفه ذلك الكثير ... هناك سائقو أتوبيسات يفعلون ذلك مجانا ولوجه الله وآخرون يتقاضون ثمن الدخان والشاي ... كلام معقول، وزع الزاوي أربع صور وكان عليه أن يحفظ في ذاكرته صور السائقين ليعود إليهم بعد ذلك ... صورة لسائق متجهة إلى قرية " الخالصة " شمال بغداد ... آخر عنوان لفرج والثلاثة لسائقين متجهين إلى الكوفة والنجف وكربلاء ... وأوصاهم خيرا ... ووعدهم بحلاوة اكبر من ثمن الدخان والشاي وعاد الشارع بطوله مرة أخرى إلى مقهى " شمس الكرخ " محل أبو طه المختار.

(6)

" أبو طه " ليس بمشكلة، لن " يغلب " معه ... أحاديث الليلة الماضية كشفت له معدنه ... رجل بسيط ليس لديه أسرار إلا أن لسانه " مفلوت " ... وهذه مشكلته هو ولكن لابد من التخلص منه للذهاب وحده إلى موعد الساعة الرابعة في الوزيرية لمقابلة جبرائيل عبد الجبار، فربما يساعدونه في العثور على ابنه فرج والبحث أيضا عن طه، هل عليه أبو طه. و" حواديته " عن الذي قابلهم وتحدث معهم وآخر أخبار البحث عن ابنه وهو ما أدركه الزاوي مبكرا انه أسلوب لن يجدي، قال له أنه يسأل العديد من المحلات والمطاعم عن فرصة عمل ... إلا انه لم يوفق ... وأخفى عنه قصة صاحب محل العطارة الحاج إبراهيم الحلي ووعده له بتدبير فرصة عمل مع بداية الشهر واختلق قصة بأنه قابل صدفه احد معارفه في القاهرة ... من القاهرة وليس الصعيد ... الصعيد التهمة التي يحاول أن ينفيها عن نفسه وهذا الشخص أبلغه عن وجود فرصة عمل لدى أحد أقاربه وانه سيقابله عصرا وعليهم العودة إلى السكن الآن لأخذ قسط من الراحة قبل ذهابه إليه ... ابتلع أبو طه القصة ودعا له بالتوفيق!

نزل من السكن في تمام الثالثة وخرج من الحارة إلى الشارع الرئيسي ... تأكد أن لا أحد يسير خلفه أو يراقبه ... تمشى على قدميه قليلا ... أوقف سيارة أجرة فجأة وجلس بجوار السائق وطلب التوجه إلى الوزيرية وذكر العنوان، في أقل من عشرة دقائق بعد لف ودوران في الشوارع أتاح الفرصة لعلي الزاوي أن يطبع في ذاكرته صور المحلات والناس والعمارات، توقف التاكسي أمام بناية وأعطى للسائق دينارين اثنين ... أخذهما ولم ينطق بكلمة ... ولم يجادل ولم يطلب زيادة مثلما يفعل سائقوا التاكسيات في القاهرة، البناية مثل غيرها من البنايات، ليس مركزا للشرطة وليست عليها وفي المدخل واجه خفيرا سأله عن مقصده ... أجابه بتردد وحذر ... الدور الثالث ... الأستاذ جبرائيل عبد الجبار ... أشار إليه إلى مطلع السلم. بغداد كلها تسمع دقات قلبه ... ها هم جاءوا إليه ... وجاء لهم وقد حذره المصريون قبل سفره منهم ... " المحتاج يركب الصعب " هذا مبدؤه منذ غادر الصعيد وقابل للتطبيق هنا رغم أن أغلب نصائح مصر لا تسير في العراق ... تزداد دقات قلبه عنفا كلما صعد درجات السلم ... المكان فيما يبدو مكاتب وإن كان مثل الشقق ... بمجرد دخوله الدور الثالث، وقف خفير آخر أو حارس وسأله عن مبتغاه ... الأستاذ جبرائيل عبد الجبار، أشار له بيده إلى باب حجرة مغلق وطلب منه طرق الباب والدخول.

الجالس على المكتب ليس العراقي الذي قابله في المقهى وقد ظن انه هو ... موظف كبير ... ومكتب ضخم ... وصورة أضخم خلفه للرئيس صدام حسين ... يبدو أن صدام حسين يراقبهم جميعا ... لم ينظر إلى عيون الموظف، وإنما إلى عيون صدام في الصورة مثل أسياخ الحديد " المحمي " ... أشار له بالجلوس ... تردد وجلس ... رحب به في العراق وأضاف له أن

ثمان وأربعين ساعة أو ما يزيد قليلا لن تمكنه من معرفة بغداد جيدا، الغرض إفهامه انه يعلم متى وصل بغداد، ضغط على جرس بجواره ... دخل الحارس ... انه ليس بحارس ... " فراش " ... طلب منه كوبا من الشاي سريعا وكأن الشاي كان على النار، قدمه الفراش وانصرف ... وباغته جبرائيل بسؤال عن كيف حال الأهل في الصعيد ... صحح له المعلومة انه من القاهرة ... جذوره في الصعيد وقبل أن يرتشف الشاي، طلب منه الإسراع والتوجه إلى المنطقة الأعظمية وكتب عنوانا في ورقة وأعطاها له ... في الأعظمية ستقابل السيد جبرائيل عبد الجبار ... شوشرة سرت في مخ الزاوي وتساءل بخوف ... أليس أنت الأستاذ جبرائيل؟ أجابه بجدية بنعم ولم تهتز جفونه ... رموش عينيه مثل المسامير نعم ... أنا جبرائيل وهناك جبرائيل آخر وأوصاه ألا يدفع أكثر من دينارين لسائق التاكسي وهب واقفا ممددا يده بالسلام إيذانا بصرف علي الزاوي ... صافحه وهبط الدرج إلى الشارع واستقل سيارة أجرة أخرى إلى الأعظمية.

الشوارع في تلك المنطقة أكثر نظافة من الشوارع الأخرى ... أشجار على جانب الطريق، مسجد ضخم في الشارع الرئيسي ... سأل سائق التاكسي عنه ... أجابه ... مسجد الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان ... هذا الاسم سمعه الزاوي من قبل عندما عقد قرانه على ابنة خاله " صابرة " حيث ذكر المأذون اسم " أبو حنيفة " ولكن الوقت غير مناسب لتذكر أبو حنيفة أو غيره ... المشكلة في جبرائيل الثاني وهل هناك اثنان بهذا الاسم وماذا سيفعل به وكيف سيقابله، وهل سيكون بجمود وغلظة جبرائيل الأول؟ لقد كان المصريون على حق عندما حذروه وطالبوه بالابتعاد عن هؤلاء ... قالوا له أنهم يتبعون حاجة اسمها " شئون العرب " ... مباحث! وهو لم يدخل طوال حياته مركزا للشرطة إلا عند استخراج البطاقة الشخصية وكان مدخل السجل المدني منفصلا عن مدخل المركز ... جاء بقدميه ... ولا وقت للتراجع لقد سعى هو إليهم ... وسعوا هم إليه المشكلة ليست أخطر من مشكلة ابنه المختفي " فرج " و " المحتاج يركب الصعب " توقف التاكسي ... ودخل بناية أكثر فخامة من بناية حي الوزيرية.

لم يدق قلبه على الإطلاق هذه المرة، فقد مات قلبه تماما ... نفس الدور ... الدور الثالث ونفس الاسم جبرائيل عبد الجبار ... الحجرة أوسع والمكتب أرحب أمامه مقعدان وطاولة منخفضة وصورة صدام اكبر ... وستائر غامقة اللون أو سوداء تحجب ضوء العصرية ... قام الرجل لاستقباله متحركا من مقعده ليأخذ بيده ويجلسان في مواجهة بعضهما على المقعدين المواجهين للمكتب، أهلين وسهلين ... يا ألف مرحبا وابتسم وإضافة بالمصرية " خطوة عزيزة "! انه يعرف الابتسامة وليس مثل جبرائيل الأول ... الشاي فيما يبدو واجب الضيافة الأساسي ... وبعد أن قدمه له وبنفسه سأله إذا كان يرغب في أي مشروب آخر قهوة أو ليمون ... وقام إلى مكتبه ليفتح واحد من الأدراج

ويخرج عدة علب من السجائر ... أنواع مختلفة ويطلب منه أن يمد يده ليختار ما يدخنه وأضاف له أن المعسل ممنوع من دخول هذا المبنى ... حديثه ناعم ودود والزاوي لا يرتاح للنعومة أو الود الزائد.

عيناه على السيجارة التي التقطها الزاوي ومن أي نوع مصري أم عراقي أم أجنبي ... وضع سيجارة كيلوباترا بين شفتيه وأسرع جبرائيل لإشعالها له ... " حاضرين! " ربما يكون معنى الكلمة بالمصرية ... " أي خدمة " ... أخذ النفس الأول ولم يخرج من فمه أو أنفه دخان على الإطلاق ... الدخان دخل في بئر الزاوي العميق ... باغته وسأله عن كيفية قضاء الوقت مع " أبو طه " ... الكل هنا فيما يبدو يباغت ويسأل ... وقبل أن يجيبه أوضح له أن خمس عشر دينارا في الشهر مشاركة في إيجار حجرة ليس قيمة كبيرة وأن ذلك هو السعر السائد في الأحياء الشعبية ببغداد وسأله عن مقهى " شمس الكرخ " مضيفا أن الجرسون الذي يعمل هناك " حرامي "! وضحك بلا صوت!

الزاوي يتضاءل في المقعد وينكمش فقد شعر انه رجل من زجاج ... لا يخشى الكسر بالطبع، فقد كسر مرتين من قبل ... المرة الأولى منذ خروجه من قريته هربا ... والمرة الثانية منذ أن انقطعت أخبار " فرج " ... شعر انه رجل من زجاج ... وأن جبرائيل هذا ينظر إليه فيرى ما بداخله ... عادت دقات قلبه للخفقان سريعا مرة أخرى ... وجبرائيل يحرك عينيه بعيدا عنه بعض الشيء ... ثم يركزها فجأة في عينيه وعلى صدره ... لم يجد علي الزاوي نفسه في موقف كهذا من قبل وعليه الصبر، سأله إذا كان قد وجد عملا أو لا ... حمد الله انه لم يعرف ما دار بينه وبين إبراهيم الحلي العطار، إلا أنه لحق سؤاله بسؤال آخر عن مدى معرفة الزاوي بالعطارة!. وقف جبرائيل ناهضا على قدميه فجأة وطلب جواز سفر علي الزاوي، فقدمه له بثبات فما زال لديه بقية من الشجاعة أو بعض " الاستبياع ".

قلب في صفحات جواز السفر بعدما عاد إلى مقعده وأضاء لمبة صغيرة على مكتبه وسأل الزاوي عن حقيقة هذا الجواز ... وإذا كان حقيقا أو مزورا ... وجد الزاوي نفسه يقسم بالله العظيم أن جواز السفر حقيقي، فسأله عن اسمه إذا كان فعلا يخصه أو انه اسم مستعار، فرائص الزاوي في وضع الاستعداد للاهتزاز ... يبدو انه تحقيق سينتهي بسجنه أو اختفائه مثل المصريين الآخرين وقبل أن يذهب علي الزاوي بفكره بعيدا جذبه جبرائيل إليه مرة أخرى ... وعاد ليجلس على الكرسي المواجه له ويطمئنه حتى ولو الجواز مزور واسمه هذا غير حقيقي ... فلا شيء يهم على الإطلاق وسيامله على انه علي الزاوي الحقيقي!

سأله عن مهنته ... " الكذب خيبة " واستمر جبرائيل ينظر إليه ويقرأ البيانات المدونة في الجواز ... المهنة " مبلط قيشاني " ومد يده وأمسك بيدي الزاوي ضغط بقوة على أصابعه قائلا هذه الأيدي لم تعمل أبدا في المعمار أو البلاط ... يا زاوي ... أليس كذلك؟ ... الكذب خيبة فعلا وانهار قبل ممارسة المزيد من الضغوط عليه ... اعترف بأنه لم يعمل في المعمار أو البلاط ولكن عندما فكر في السفر، كانت مهنته في البطاقة العائلية، انه لا

يعمل ونصحه أولاد الحلال بتغيير المهنة ووضع مهنة مناسبة تساعده في السفر إلى العراق، ولم يجد أفضل من مبلط قيشاني وأن الحاج ياقوت جاره ... وهو يعمل موظف جاء له باستمارة تغيير بيانات وختم له الاستمارة من المصلحة التي يعمل بها، إلا أن موظف السجل المدني في روض الفرج رفض الاعتراف بالاستمارة المختومة وطالب بختمها من التأمينات الاجتماعية ... والزاوي غير مؤمن عليه ... ولم يعمل من قبل في أية جهة، إلا أن الحاج ياقوت طمأنه وأفهمه أنها أساليب معروفة لتعقيد الأمور ثم " تسليكها " مرة أخرى إذا فتح مخه!

يحكي الزاوي ... ويحكي ... وجبرائيل يتظاهر بعدم السماع ... أو عدم أهمية ما يقوله الزاوي، إلا انه سأله بهدوء ... كم دفعت في تغيير المهنة؟ ... حكى الزاوي وتوقف عند المبلغ ... دفع مائتي جنيه وخمسين ... كان ابنه فرج قد أرسل إليه حوالة على بنك الرافدين في الدقي ... ذهب وصرف المبلغ ... حوالي 300 دولار ... باعهم قبل أن يخرج من البنك ... حيث هناك مجموعة من الشباب داخل الصالة يشترون الدولارات بأكثر من سعر البنك ... دفع من المبلغ مائتين وخمسين جنيها ... كان ذلك كله على يد الحاج ياقوت الذي ذهب معه إلى السجل المدني في المرتين.

سأله عن مهنته الأصلية ... قال له كنت مزارعا قبل المجيء إلى القاهرة ... لدى قطعة أرض إرث وعندما وصلت مصر عملت مناديا ... أنادي على الأطفال التائهة، وجلجلت الحجرة بضحكة جبرائيل قائلا وقد جئت إلى العراق لتنادي على ابنك فرج! طلب جبرائيل منه بحدة أن يحكي له عن ياقوت هذا، وما هي علاقته به وما هو اسمه الكامل وأين يعمل بالتحديد وهل جاء ياقوت إلى العراق من قبل ... والأهم كيف تعرف هو على ياقوت أو أن ياقوت هو الذي سعى للتعرف والتقرب منه؟ الأسئلة كثيرة ... لا يعرف الزاوي من أين يبدأ ... سهل جبرائيل له المهمة وطلب منه أن يحكي من أي جزء يشاء، فهو ضيف ولن يتركه يغادر المكان إلا بعد سماع كل ما أغلق عليه قلبه، وأمامها الوقت والليل يحب السهر!

الضيافة قد تطول ... وقد لا يرى أبو طه مرة ثانية ... والرحلة يبدو أنها انتهت قبل أن تبدأ ... وجبرائيل لن يتركه يغادر المكان ما لم يتأكد من صدق رواياته ... وعليه بالصدق ... لقد سكن بجوار ياقوت ... في حجرة بمنزل مجاور استأجرها له ابن خاله صفوت في حارة ضيقة متعرجة قريبة من كوبري الصنايع والسكة الحديد بروض الفرج، وظل ما يقرب من ثلاث سنوات وحيدا دون زوجته أو ابنه ... يقضي وقته في متابعة سكان الحارة من فوق سطح المنزل الملحق بحجرته ... لفت نظره ياقوت ... يخرج من الصباح الباكر ويعود مع آذان العصر ... أفندي من بحري وزوجته فلاحة مكيرة ... يقولون له الحاج ياقوت وهو ليس بحاج لديه من البنات أربع وابن واحد ... يتمتع باحترام الناس ... يحضر معه أحيانا عند عودته عصرا جريدة أو كيس فاكهة أو بطيخة ... لا

يدخل الحارة ويده فارغة ويقضي وقته في المساء ... مثله فوق سطح منزله، الفرق بينه وبين الزاوي ... أن زوجة ياقوت تعد له مائدة صغيرة فوق السطح ... عليها زجاجة منكر ... خمرة ... والزاوي يعد المعسل والفحم لإشعال الجوزة ... بعد ثلاث سنوات تبادلا السلام والتحية.

وقف جبرائيل على قدميه وتحرك ببطء شديدة تجاه النافذة أزاح الستائر ... النهار ولي ... وقدم الليل والزاوي التصق بالمقعد ... لمح عتمة الليل ... ولمحه جبرائيل ينظر للضوء القادم من الشارع ... أخبره أن الليل طويل وعليه الاستمرار ولا داعي للقلق، جاءت امرأتي " صابرة " وابني " نصر " من الصعيد للإقامة معي – ويحكي الزاوي – حملت في الطفل الثاني وبدأت زوجة ياقوت تتردد عليها ... كان جلوسهما فوق السطح ... أمام الحجرة ... صابرة لم تخبرها عن مسقط رأسها بالتحديد كما أكدت عليها ... العلاقة استمرت بين النسوان ... إلا أن الزاوي لم يقم بزيارة ياقوت في منزله على الإطلاق. جاء مناسبة دينية ... موسم ... نصف شعبان ... أرسل ياقوت كبرى بناته إلى الزاوي تطلب حضوره لوالدها ... إلا انه تعلل بأنه في انتظار ضيوف.

نادى عليه ياقوت من فوق سطح منزله وأخبره إذا جاء الضيوف من الممكن أن يغادر وعندما جاءه ... أوضح له معرفته بحجة الضيوف فهو يعلم أن الزاوي لا أقارب له ولا معارف ولم ير له أهلا طوال الخمس أو الست سنوات التي أقام فيها بجواره. حديثه جميل طلب منه مشاركته في الطعام ومشاركته في الشراب ... امتنع عن الشراب فهو لم يذق الخمر طول حياته، إلا أن ياقوت حكي له عن أخته التي لم تكف عن البكاء بعدما خرج أبنها الصغير من المنزل صباحا ولم يرجع حتى وقت جلستهم تلك ... وطلب منه أن يخرج للبحث عن الطفل في الحواري المجاورة ... عمره أربع سنوات ... يرتدي جلبابا وشعره أصفر ... وانطلق الزاوي في الحواري يبحث عن الطفل التائه ... في أقل من ساعتين عثر عليه وعاد به إلى ياقوت ... أعطاه خمسين قرشا ... أول مبلغ اكتسبه في القاهرة وبعدها احترف مهنة البحث عن الأطفال التائهين واستعار النداء الذي سمعه منذ أن كان صبيا ... " يا دليل التائه ... يا عدوي " ... ولا يعرف من هو عدوي هذا!

من وقت لآخر ... كان يجالس ياقوت ولا يذهب إليه إلا إذا طلبه وألح في الطلب ولم يشاركه أبدا في الشراب. توقف الزاوي ... حرك جبرائيل إصبعه بحركة دائرية يطلب منه الاستمرار في الحديث ... كان ياقوت دائم إطلاق النكات على الصعايدة، إلا أن الزاوي لم يجد فيها ما يجرح كرامته وكان يطلق الشائعات عليه إلا أنها كانت مصدر رزقه ... فلا يختفي طفل من الحارة أو الحواري المجاورة إلا ويذهب أهله إلى الزاوي بناء على نصيحة الحاج ياقوت وحدد لنفسه أجره ... مقابل هذا العمل ... عشرة قروش عند الاتفاق ... وخمسة وعشرون قرشا " حلاوة " عند العودة بالطفل ... وقروش الاتفاق العشرة أهم من الحلاوة ... فقد يعود الطفل لمنزله دون عثور الزاوي عليه وبذلك تكون القروش العشرة قد دخلت جيبه ولا تخرج ... الحاج ياقوت كان

يقـول إن الـزاوي يسـرق الأولاد نهـارا ثـم يعيـدهم لـيلا بعـدما يـدفع ذوويهـم المطلوب، وسارت الأمـور ... النسـاء تلـدن ... والأطفـال يتوهـون ... والـرزق لا ينقطع ... من خلال ياقوت الذي يمتلك المنزل الذي يقـيم فيـه، تعـرف الـزاوي واقترب من بقية سكان الحارة.

بطالع جبرائيل مجلة في يده، لمح الزاوي أن بهـاء نسـاء عاريـات وفـي يـده الأخرى " سبحة " مدلاة ... ملفوفة حول معصمة يبدو انـه لا يسـتخدمها فـي التسبيح ... والزاوي يحكي وجبرائيل ينصت أحيانا باهتمام وفي أحيـان أخـرى يبدو وأنه لا يكترث على الإطلاق بكلام الزاوي، اسم ياقوت كـاملا لا يعرفـه ... وظيفته ... لا يعرفها كل ما يعرفـه انـه موظـف ... المصـلحة التـي يعمـل بهـا، يعرف أنها في " السبتية " ... في بولاق ... ربما ... الكـل يطلـق عليـه اسـم الحاج ياقوت إلا انه لم يحج إلا بعد بلوغه سن المعاش وحصوله علـى مكافـأة ... اسمها نهاية خدمة. أخذ زوجته وسافر الحجاز وعـاد وقـد أقلـع عـن الخمـر وتدخين السجائر!

وضع جبرائيل المجلة على الطاولة ... الغلاف عليه امرأة بيضاء مثل الشمع في وضع غريب وعارية تماما مثلما ولـدتها أمهـا ... جـاء الـدور علـى جبرائيـل للحـديث ... نهـض ليربـت علـى كتـف الـزاوي ... المهـم ... حمـد الله علـى سلامته! جبرائيل عرف ما هو ياقوت ويريد الزاوي أن يعرف من هو جبرائيـل ... المسافة بين الفكرة والنطق بها أسـرع لـدى جبرائيـل الـذي يقـرأ مـخ الـزاوي وكأنه كتاب مفتوح ... مرحبا بك في " قسم شئون العرب " ... الأمور اتضـحت وانبرى جبرائيل يتلو ما هـو قسـم العـرب وكأنـه يقـرأ مـن القـرآن، مهمـة هـذا القسم السهر على رعاية إخواننـا العـرب الـذي يـأتون للعـراق مـن كـل مكـان وتسـهيل إقامتهم وحل مشاكلهم ومساعدتهم إذا أمكن ... إن كل مـن يـدخل العراق عليه أن يرجع قسم شئون العرب في الحي الذي يقيم فيه خلال مـدة أقصاها أسبوعين.

ثقب جبرائيل عيني الزاوي بنظراته وسأله عن المنـزل الـذي يقـيم بـه فـي روض الفرج وأصحابه وعلاقته بهم، الإجابة لا تحتاج إلى ضغط أو جهد، استأجر له ابن خاله صفوت حجرة فوق السطح لدى امرأة عجـوز، لهـا اسـمان " زكيـة الطرشـة " و " زكية أمانه " الاسـم الأول يعـرف سـببه، فهـي لا تسـمع علـى الإطلاق وكان يخرج ويدخل من المنزل، لا تشعر به ولا تسمع وقـع أقدامـه ... قال له صفوت أنها طيبة، إلا أنها كانت جشعة، عندما قرر أن يستغل جزءا مـن السـطح، طلبـت رفـع الأجـرة ورفعتهـا أكثـر مـن مـرة ووصـل الإيجـار الشـهري خمسة عشرة جنيها، أما اسمها الثاني " زكيه أمانة " فالسـبب أنهـا ليسـت أمينـة علـى الإطـلاق، تتعامـل مـع اللصـوص والحراميـة ... يخفـون عنـدها المسروقات ... أي يضعونها عندها " أمانـة " ... سـمع هـذه التفاصـيل عنـدما تشاجرت معها امرأة بالحارة ... وهـددت بفضـحها ... وقامـت بفضـحها بالفعـل وذكرت أشياء أخرى من هذا القبيل.

يكاد الزاوي أن يتوقف ويدق له جبرائيل بإصبعه على المكتب يطلب منه الاستمرار ... كانت زكية أمانة حرامية أيضا، عندما تسقط دجاجة من فوق السطح لا يجد لها أثرا ويعثر بعد عدة أيام على ريشها في صندوق قمامة " زكية أمانة " وقد جاءتها الشرطة مرة واختفت عدة أسابيع من حجرتها الضيقة في مدخل المنزل، ولم تفسر لأحد سبب اختفائها أو سبب طلبها في مركز الشرطة ... اعتادت الخروج مع أذان الفجر والعودة قبل العاشرة صباحا ... الحارة في هذا الوقت لا يسمع فيها " صريخ ابن يومين " تدخل حجرتها ولا تخرج منها إلا عصرا ... تجلس أمام المنزل ويتحدث الكل أمامها بلا خوف ... فهي لا تسمع ... ركز على الزاوي على جملة " لا تسمع ... لا تسمع " ... فأكد له جبرائيل انه يسمعه تماما ... وسيحدثه بكل أمانة!

سأله جبرائيل عن عدد أولاده وسلمه بطاقة تموين كتب عليها اسمه ... يصرف بها كل السلع الأساسية من جمعية استهلاكية في شارع الرشيد ... تحت " البواكي " في مواجهة المدخل الرئيسي " للمربعة " وطلب منه أن يستمر في الإقامة مع أبو طه ... وان يقول انه جاء للبحث عن ابنه " فرج " ويوزع صوره كما يشاء وحذره من مقابلة سعيد النظيف في الوقت الحالي وأخبره انه من الممكن أن يجدوا له عملا ولكن عليه أن يبحث هو بطريقته وطلب منه التجول في بغداد قدر المستطاع ليحفظها ويحفظ شوارعها وحواريها وأحياءها وأفهمه أن لن يمسه احد بسواء هنا في العراق حتى وإن كان هاربا من ثأر. توقف جبرائيل عند حروف كلمة " ثأر " ... وتجاهله الزاوي! ووقف على قدميه ودس في يده مبلغا من المال ونصحه بالمرور من وقت لآخر على مكتب جبرائيل عبد الجبار في مكتب " الوزيرية " ... ولا يخبر أحدا على الإطلاق بهذا اللقاء ... صافحه ... إلا أن جبرائيل ظل ممسكا بيده عدة ثوان!

" انزاح " عبء ثقيل من على أكتاف الزاوي ... كان ينتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر مثلما انتظر عودة شمل أسرته ومجيء " صابرة " وابنه نصر ... انتظرهما ما يقرب من ثلاث سنوات ... وتقابلوا بعد فراق ... واجتمعوا بعد بعاد ... ولم يطل انتظاره هذه المرة ... بعد أقل من يومين ... اصطاده قسم شئون العرب ... وخرج أكثر قوة ... لقد عصره جبرائيل عصرا ... وأخرج هو طواعية كل ما كان يخفيه ويخيفه وما لا تحرقه النار تزيده صلابة وقد شعر بقرب الانفراج! المبلغ الذي في يده عربون شغل وليس لوجه الله ... يذكره بما دسته في يده " صابرة " قبل مغادرته القرية وما تركه له ابن خاله صفوت في القاهرة قبل أن يتركه وحيدا في بحار الخوف والعذاب ...